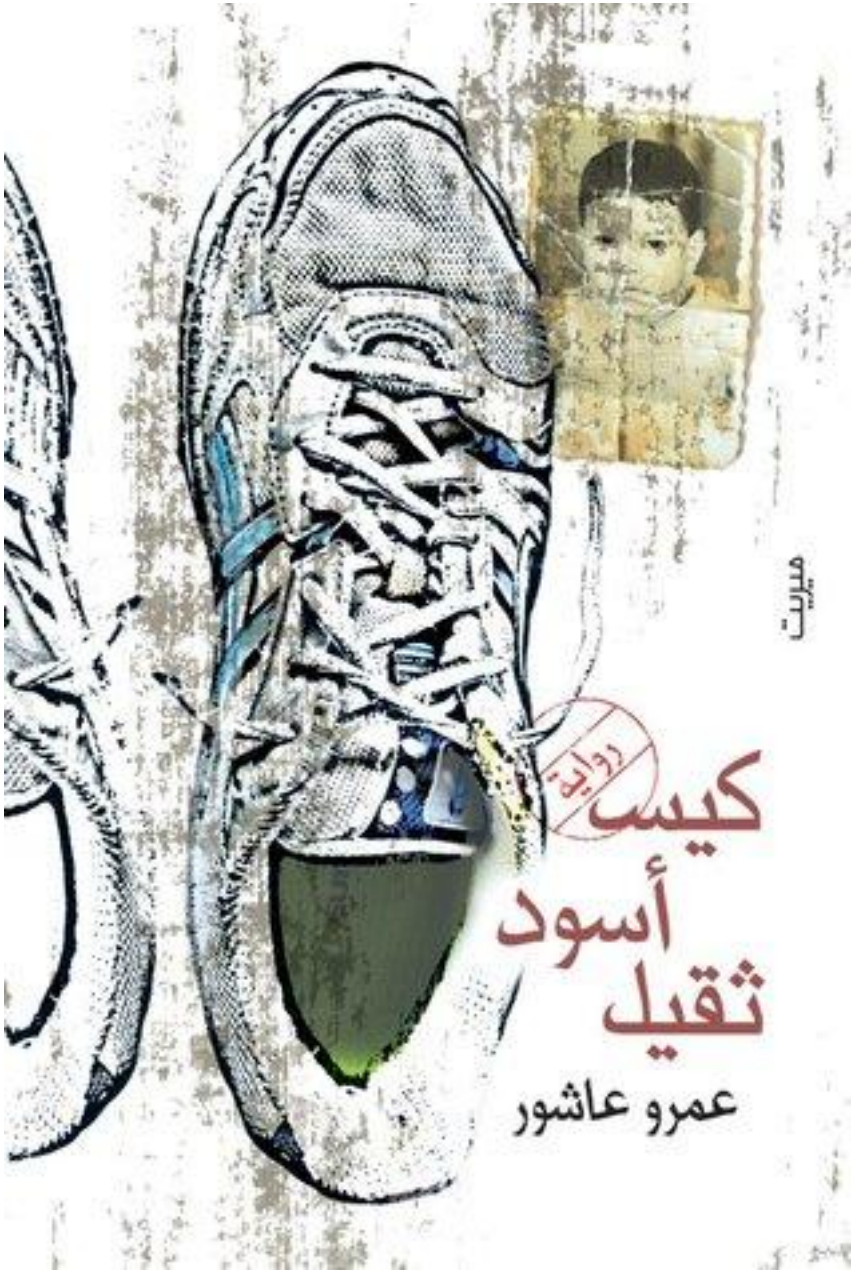
رواية
كيس أسود ثقيل
عمرو عاشور
ميريت

عمرو عاشور

كيس أسود ثقيل

رواية

دار ميريت
القاهرة 2011

إلى / نادية السيد على خطاب.
والواد مروان.

نحن من منفى إلى منفى
ومن باب إلى باب
نذوى كما تذوى
الزنابق فى التراب.

عبد الوهاب البياتى

(0)

الحواديت كلها متشابهة، تبدأ بـ" صلى على النبي" وتنتهى بـ"وعاشوا فى تبات ونبات وخلفوا صبيان وبنات". تحب أنت حكاية الشاطر حسن وحكاية لص بغداد وتكره حكاية أبو وش مسلوخ، فى حين تحب أختك حكاية ست الحسن والجمال والأقزام السبعة... وفى الحواديت يسافر البطل إلى بلدان بعيدة، يسكنها ناس غرباء، يصل إليها البطل

بعد رحلات تمتلئ بالمخاطر والعفاريت والعمالقة، غير أن البطل - فى نهاية كل حدوتة - يعود من رحلته غانمًا ظافرًا باللؤلؤ والمرجان والياقوت؛ ليبنى قصرًا ويتزوج الأميرة التى غالبًا ما تكون ابنة السلطان، وترتجل أمك فى الحكايات فتغير منها وتضيف لها فى كل مرّة، وتغير نبرة صوتها أثناء الحكي، فمرّة يكون صوتها غليظًا خشنًا حين تتحدث بصوت المارد، ومرّة يكون ناعمًا رقيقًا حين تتحدث بصوت الأميرة.

كما أنك تحب أن تجلس إلى جوار البابور رفقة أمك وأختك شيماء، وتحب أمك حين تقول لك:

- انت راجل البيت... انت راجلنا.

لذة الرجولة تسرى فى بدنك الضئيل، تغار منك شيماء وتسخر من قدميك الهزيلتين وتقول:

- بقى ده راجل ده! ده عامل زى البرص.

وقتها، تزوم وتزأر كأسد جريح، تنتفض من مكانك وتنقض عليها، تحاول أن تمسك بها، فتختبئ هى خلف أمك وتستغيث بها. تحول أمك بينكما وتزعق وتصرخ ثم تبكى كثيرًا وتنتحب! تلعن أمك والدك وتلعن الغربة وتسبّ لقمة العيش التى أدت إلى غربته، أحيانًا تسمعها تناجيه وتشكو له من أفعال عماتك ومن ظلم جدتك! تحس أنت بالشفقة تجاه دموع أمك، تجلس على حجرها وتربت على ظهرها، تنظر هى لك وتبتسم، تحتضنك بقوة حتى تشعر بأن ضلوعك تتكسر، وتقبّل عينك تلك القبّلة اللعينة التى تكرهها، ثم تمسح

مخاطها فى طرف جلبابها، تضعك بجوار البابور وتقوم، تحمل شيماء وتُجلسها بجانبك، تقول أمك:

- صوت البابور بالليل بيطرد الشياطين.

تخاف شيماء، فتحاول إغاظتها.

- يا خوافة.

تنظر شيماء إلى أمك وتحثها على التدخل، فتنهرك قائلة:

- يا بنى بطل شقاوة... انت إيه! معجون بمية عفاريت؟ والله لو ماسكتش هبعت لأبوك وأخليه مايجيبلكش العجلة.

تتوسل إليها:

- خلاص... خلاص... أنا هقعد ساكت.

تضع كفك الصغير على فمك، وسرعان ما تطلب شيماء أن تُكمل أمك الحدوتة، وتعود هى إلى الحكاية من جديد، وتكتفى أنت بالإصغاء إليها، وعيناك لا تفارقان شفتيها أبدًا. تنام أختك قبل أن تنتهى الحدوتة كعادتها، فتحملها أمك وتضعها على الكنبة الصغيرة. تلح عليها كى تكمل الحكاية، ترفض وتخبرك أنها تعبانة، فتسألها:

- يعنى إيه بلاد تشيله وبلاد تحطه؟

- يعنى بيفضل ماشى لغاية ما يوصل للبلد اللى هو عاوزها.

ثم تطفئ النور وهى تُكمل:

- نام بقى.. انت دماغك مصفحة زى أبوك!

ولكنك لا تنام، تغمض جفنيك فقط وتفكر فى والدك، تتساءل: "كيف سار حتى وصل للكويت؟ هل قابل فى طريقه أيّة مخاطر؟ وماذا سيجلب لك بعد مجيئه؟".

وتتذكر شكوى أمك للجيران حين تقول لهم: "سفره زى عدمه.. من ساعة ما سافر مابعتش قرش.. لولا الخياطة كانت العيال دى ماتت من الجوع".

تعتقد أن أمك كاذبة، هى تكذب دائمًا. تقول لجدتك:

- أنا رايحة أزور أختي... وهاخد عاطف معايا.

ولكنها لا تصطحبك إلى خالتك، تخبرك بأنها ستجعلك تزور حديقة الحيوان وستشترى لك الحلويات التى تحبها، وهناك - بداخل الحديقة - تجد الرجل الغريب فى انتظاركما، يبتسم فى وجهك ويمسح على رأسك ويلاطفك.

- بسم الله ما شاء الله... الواد بقى راجل أهو.

الرجل الغريب يجلب لك الهدايا والسندوتشات، يجلس إلى جوار أمك، يميل نحو أذنها ويهمس، فتضحك هى بصوت عالٍ وتدس السندوتش فى فمه، يقضم منه قضمة كبيرة ثم يبتسم ببلاهة... وقتها تتمنى أن تنقض عليه، أن تركله فى معدته حتى تقتله، غير أنك تغضب من أمك.

- أنا مش بحب جنينة الحيوانات... أنا مش عاوز أروحها تاني.

فى المرّة التالية، اصطحبتك إلى حديقة الأسماك، الرجل الغريب يذهب إلى هناك أيضًا، فى هذه المرّة أحضر لك كرة: كبيرة، ملونة وجميلة.

فرحت بها، وأحببت الرجل الغريب، والدك لم يتنزه معك أبدًا، ولا يحضر لك الهدايا. تلح أمك بعد كل لقاء:

- اوعى تجيب سيرة لحد.. أنا أمك حبيبتك.. أنا باخدك معايا عشان انت راجلى .. مش زى السوسة شيماء الفتانة.

****

حين يشتد العراك بين أمك وعماتك تفضل أن تختبئ تحت السرير، تجاهد لتمنع صوت السباب من اختراقك، تبكى بعنف، ليس خوفًا من المعركة الدائرة على سلالم البيت، ولكن لإحساسك بالمهانة والذل والقهر. تتساءل: لماذا لا ترحل أمك؟ لماذا لا تجعل البلاد تشيلها وتحطها؟

عندما تصارحها بما يدور فى خاطرك، تقول لك:

- انت لسه صغير ما تفهمش حاجة... يا بنى الحياة عذاب فى عذاب.. والست من غير راجل تنهشها كلاب السكك.

غير أنك لا تقتنع بكلامها وتظل تحلم بالبلدان البعيدة، تحلم بالخير الوفير وابنة السلطان والجن الطيب والناس الغرباء.

العبور من ثقب ضيق

-1-

هنا... لا صحبة ولا كلمة طيبة، أقضى طوال الوقت ما بين مشاهدة التليفزيون وقراءة الكتب، أمتلك مجموعة كبيرة من الكتب: المغامرون الخمسة، الشياطين الـ13، فلاش، ومجلد كبير لميكي، حين أشرع فى القراءة يذوب كل من حولى ويتلاشى، حينها أشعر وكأنى أسبح فى البحار أو أحلق فى السماء، فلا أسمع نداء أمي، ولا ضجيج الورش بالخارج...

حين أخرج لقضاء طلبات البيت، أسمعهم يهمسون "دا ابن الساكنة الجديدة" ينتابنى الحرج، أتمنى أن تبتلعنى الأرض، الناس هنا متطفلون للغاية، لا أحب أن يتطفل علىَّ أحد، تقتلنى نظراتهم أينما ذهبت. يقول البقال:

- ابقى سلم لى على ماما يا شاطر.

ويسألنى عن اسمى.

- عاطف.

وتبدأ سلسة من التساؤلات التى لا تنتهى، وتنهال على رأسى التحقيقات.

- وبتروح المدرسة يا عاطف؟

أسكت، يُكمل:

- وفى سنة كام يا عاطف؟

أتفصد عرقًا.

- أولى إعدادي.

- وبتاخدوا إيه فى المدرسة؟ تعرف 5×8 بكام؟ انت شكلك شاطر مش كدا؟

وأعود إلى بيتنا محملاً بالضيق، تحس أمى بوحدتى، تجالسنى وتقص على بعضًا من حكاياتها التى لا تنتهى. أقول:

- أنا عايز أروح بيت ستي.

تتنهد... تتذكر ما فعله خالى محمد، وكيف طردها من سكن العائلة حين قال "أنا مش عايز مشاكل فى البيت.. مش

كل يوم والتانى تتخانقى مع أمل.. لازم تعرفى أن أمل دى مراتى... والبيت دا بيتى.. يعنى بيتها.. انتى فاهمانى؟ بيتها.. تعمل فيه اللى هى عايزاه.. أظن كلامى مفهوم"

تبكى، فأصمت، ولا ألح فى مطلبى، ألتقط كتابًا – فى الغالب أكون قد قرأته من قبل مرة أو أكثر؛ فمنذ أن سافر أبى وأنا لم أشترِ أية كتب - وانغمس فى القراءة.

****

تعودت - منذ أن جئتُ إلى هنا – أن أستيقظ مبكرًا حتى يتسنى لى متابعة الأفلام الكارتونية، فى العاشرة تعرض القناة الأولى كارتون الفواكه، وفى العاشرة والنصف تعرض القناة الثالثة مازنجر، يعقبهما فترة طويلة من الملل.

أشترى فرخ ورق من المكتبة وأصنع طائرة ورقية، أستأذن أمى كى تعطينى خيطًا؛ كثرت الخيوط فى بيتنا منذ أن اشتغلت أمى بالخياطة، أراها تقص القماش وتصنع منه ملابس تبهرني، تبتسم فى وجهى وتأذن لى بأن آخذ ما أشاء من الخيط، أصنف الخيوط: الأبيض والأحمر والأصفر لتزيين الطائرة، والأسود من أجل تحليقها.

الطائرة كبيرة وجميلة، أفرح بها، أحتضنها وأجرى إلى الشارع، أرخى الخيط الأسود وأجرى بأقصى ما أستطيع، الطائرة تتخبط بالأرض وترفض أن ترتفع، ألهث، ألتقط أنفاسى بصعوبة وإنهاك، سكاكين حادة تنغز صدرى، أستريح قليلاً ثمّ أستأنف الجرى، والطائرة على حالها وكأنها ترفض

اللعب معي! لا أيأس، أجرى، ينقطع الخيط فجأة، الطائرة عالقة، هناك من يحاول سرقة الطائرة! أستدير، أدقق النظر، فإذا بطفل – فى مثل سنى وطولى تقريبًا - يمسك بالطائرة، أغتاظ بشدة، أقترب منه وآمره أن يترك طائرتى، يقول ببرود:

- مش هديك الطيارة.

لا أتمالك نفسى، أنقض عليه وأطوق عنقه بيدى، وأنهال عليه بالضرب، يحاول عبثًا الدفاع عن نفسه، يشعر بمدى ضآلته ومدى قوتى، يئن ويغرقنى بسيل من الشتائم، أطرحه أرضًا وأبرك فوقه، أرى فى عينيه نظرات الآخرين، يتدخل بعض المارة ويحولون بيننا. أزأر كأسد، ويئن وينهنه هو كالدجاجة المذبوحة، لا يتوقف عن السبّ البذئ، شفته وارمة، وأثار أظافرى محفورة فى وجهه، لم يصبنى أى أذى باستثناء بعض البهدلة التى نالت ملابسي. أسمعهم يرددون:

- **واد قليل الأدب.. هى أمه فين دى كمان تيجى تلم ابنها.**

يرد أحدهم:

- **عيل شامحطى.. هو ابن مين الواد ده؟**
- **ابن الساكنة الجديدة.**
- **ابن الخياطة.**

أتجاهل غضب الجميع، ألتقط طائرتى من الأرض، ألضم الخيط المقطوع، أجرى ممسكًا بطرف الخيط الأسود، فترتفع الطائرة وتحلق عاليًا.

-2-

حين تنادينى وأنا ألعب مع الأولاد فى الشارع لا أتضايق ولا أغضب منها، فقط أترك ما بيدى وأجرى نحو مدخل البيت، أصعد السلالم بسرعة، وفى الدور قبل الأخير تقابلنى، تمسح على شعرى وتقبلنى من خدى، أحس بالنشوة تسرى

فى بدنى الضئيل، تناولنى ورقة مطوية وورقة أخرى مالية فئة (25) قرشًا، أدس الورقة المالية فى جيبى وأقبض على الورقة المطوية بقوة، تدنو منى وتهمس فى أذنى:

- روح أدى الورقة دى لأشرف.. عارف هو قاعد فين؟

أهز رأسى بالإيجاب، فتقبلنى مجددًا وتربت على كتفى...

- إياك تجيب سيرة لحد... ده سر.

أشد قامتى، وأضرب بكفى على صدرى قائلاً بزهو:

- ما تخفيش... أنا راجل.

أتركها وأنزل فرحًا مبتهجًا، أثناء نزولى أتحسس جيبى وأتأكد من وجود الربع جنيه فى موضعه، أبتسم وأفكر فى أشياء كثيرة يمكننى شراؤها بهذا المبلغ، وأفكر – أيضًا – فى الولد أحمد الذى يعرف أن أبلة دينا تحب عمو أشرف، الولد أحمد يعرف كل شيء، ويسخر منى دائمًا لأننى أخاف من عادل، عادل طويل وقوى يضربنى ويمنعنى من اللعب معهم، ولكنه يخاف من الولد أحمد ويسمع كلامه، على الرغم من أن الولد أحمد ضئيل وصغير مثلى.

عند مدخل البيت، أصطدم بخالى محمد، يقبض على معصمى ويسألنى عن وجهتى، أرتبك وأتلعثم فى الكلام، وأهم بنطق الحقيقة، غير أننى أقول له:

- أنا رايح ألعب فى الشارع.

يحدق فىَّ، أشعر بالهلع والخوف، يصمت طويلاً ثم يقول:

- ما تتأخرش.

بصوت خفيض أرد:

- حاضر.

فيضيف مهددًا:

- وماتلعبش مع الواد أحمد ابن البواب.. دا عيل قليل الأدب.. لو عاوز تلعب العب مع عادل عشان ده واد متربى، مفهوم؟

- مفهوم.

يفلت معصمى، فأجرى ناحية الشارع، القهوة التى يجلس عليها عمو أشرف ليست بعيدة، ولكن المشكلة تكمّن فى السيارات المسرعة، كيف سأتجاوزها؟ الولد أحمد لا يخاف من السيارات المسرعة، أراه يلاحق سيارات النقل ويتشبث بمؤخراتها. لا أعلم كيف يقوم بأشياء كتلك.

أرى عمو أشرف جالسًا على المقهى المقابل، أتجرأ وأحاول أن أعبر الشارع. السيارات تمر من أمامى بسرعة خارقة، فأعود إلى مكانى السابق، يلمحنى عمو أشرف من بعيد، فيشير إلىَّ أن أقف، يعبر الشارع ببطء وحذر – الولد أحمد يجرى أمام السيارة ولا يبالى بها - يقترب عمو أشرف منى، يقف أمامى ويبتسم فى وجهى ويمسح على شعرى، يسألنى عن أبلة دينا، فأقول له وأنا أناوله الورقة المطوية:

- أبلة دينا بعتالك الورقة دى.

يلتقط منى الورقة ويفردها، يستغرق وقتًا طويلاً فى القراءة، ثم يبتسم ويستخرج من جيب بنطلونه ورقة وقلم، ويبدأ فى كتابة شئ ما، بعد أن ينتهى من الكتابة يطوِ الورقة جيدًا ويدسها فى جيبى.

- الورقة دى بتاعت أبلة دينا، إوعى حد يشوفها.

الولد أحمد شجاع، عندما رأى سلمى وأعجبته، ذهب إليها مباشرة وتحدث معها، ورغم الضرب المبرح الذى تعرض له من بابا سلمى إلا أنه عندما رآها مجددًا ذهب إليها مرة أخرى وتحدث معها، لكنها لم تخبر والدها باللقاء الثانى، بعد ذلك رأيتهما معًا كثيرًا، فلماذا لا يذهب عمو أشرف إلى أبلة دينا ويتحدث معها؟ يمد عمو أشرف يديه بورقة مالية فئة الـ(50) قرشًا ويقول:

- النص جنيه ده ليك.

حين ترانى أبلة دينا واقفًا أمام باب الشقة، تهرول نحوى، وتمسك كفي، ثم تقودنى إلى غرفتها، تغلق باب الغرفة بإحكام، وتسألنى عما حدث، فأقص عليها كل شيء وأناولها الورقة، تخطف من يدى الورقة المطوية وتشرع فى قراءتها، تستغرق وقتًا أطول من الوقت الذى استغرقه عمو أشرف ثم تطوى الورقة مجددًا وتضعها بداخل كتاب ضخم، تقبلنى وتحتضننى بعنف، فتندفن رأسى فى لحم صدرها الصغير المستدير - مرّة أخبرنى الولد أحمد أن البنت لها جسد غير جسد الولد، فهى لا تتبول كما نتبول نحن الصبيان

ولكنها تتبول من مؤخرتها، وأخبرنى أيضًا أن صدر المرأة الكبير به لبن وعسل أما الصدور الصغيرة فبداخلها ماء عذب دافئ، هل أطلب من أبلة دينا أن تتركنى أتذوق من ماء صدرها الدافئ العذب أم أطلب من امرأه أكبر فى السن والحجم أن تجعلنى أتذوق اللبن والعسل من صدرها الكبير؟ وأنا فى حضن أبلة دينا أفكر وأفكر فى هذا الأمر، أحس بالإرهاق والتعب، فأقول لنفسي "أحسن حاجة أنى أسأل الولد أحمد... عشان هو عارف كل حاجة".

-3-

ألَحتْ عليكِ أمى أن تبقى، وأن تتغدى معنا، فَرشتْ الأرض بأوراق الجرائد، وفتَحتْ لفة الملوحة ثم رَصتْ أرغفة العيش والبصل، وقالت لكِ:

- انزلى ياللاّ... الملوحة هتفتح نفسك على الأكل.

كنتِ – فى ذلك اليوم - سعيدة لأن الدكتور أخبرك أن صحتك تحسنت وأن الكبد عاد يعمل بانتظام، ورغم ذلك رفضتِ الأكل خوفًا من عواقبه، فقالت أمى:

- يا أمّه الدكاترة دول بيعملوا من الحبة قبة عشان يحللوا الفلوس اللى بياخدوها، يا شيخة كلى واتبسطى ولا تسألى فيهم.. ده الأكل مالوش طعم من غيرك.

ابتسمتِ ولم تردى، فردتِ ساقيكِ ودلكتِهما بمرهم الروماتيزم، ثم ناديتِ علىَّ وعلى شيماء، قعدت هى على فخذيكِ وجلستُ أنا إلى جوارك، وقالت أمى لشيماء:

- يا بت انزلى من على رجل ستك.. انتى عامية؟ مش شايفة إن رجلها وجعاها!

نَظرتْ أختى لكِ بتوجس، فمسحتِ على شعرها وقلتِ:

- خليها قاعدة.. دى شيماء دى البركة بتاعتنا.

وحكيتِ لنا حواديت وحكايات، أنتِ تعلمين بأنك لستِ حكاءة جيدة، دائمًا تنسين الحكايات ولا تتذكرين نهاياتها،

وصوتك أيضًا كان خشنًا وغليظًا، ورغم ذلك كنتُ مبسوطًا ومنتشيًا؛ مجرد القرب منكِ والالتصاق بكِ يكفيان، تمنيتُ أن تنامى عندنا، أن أنام إلى جوارك وأدفن رأسى فى صدرك، وأشم رائحتك حتى الثمالة، غير أنكِ مشيتِ بحجة... ...، لا أذكر بأى حجة، فقط مشيتِ بعد أن نقشتِ يومًا آخر جميلاً فى ذاكرتى.

****

فى صباح اليوم التالى كنتُ ألعب بالكرة مع الأولاد، كانت الإجازة، وكنتُ سعيدًا ومشغولاً باللعب، كنتُ أنتمى إلى الفريق الأقوى، فزنا مرّة وثانية وثالثة حتى أنهكتُ من اللعب، ورغم الإرهاق والعرق والجوع ظللنا نتسكع فى الشوارع حتى المساء، وحين عدتُ إلى البيت، كانت شيماء بالشارع تبكى، ظننتُ أن أمى ضربتها.

- فى إيه يا بت؟ مين اللى ضربك؟
- ستك ثريا ماتت.

قالتها وهى تنتحب، لا أعرف لم قذفتُ الكرة على وجهها بعنف! ثم انقضضتُ عليها وسحبتها من شعرها وأنا أهتف "كدابة، يا كدابة"، ولا أعرف لم استسلمت هى لى وكأنها تتلقى عقابًا على جرم عظيم!

كنتُ موقنًا أنكِ لا تموتين، وأن الموت – مهما كان قاسيًا - لن تطاوعه نفسه على قبض روحك، ولكنه خذلنى

وفعلها، وكنتِ – أنتِ - متواطئة معه تمامًا، أذكر أننى ليلتها رجوتك – على غير العادة - كثيرًا أن أنام عندك، وأنتِ – على غير العادة أيضًا - لم تلبى طلبى، كان العكس هو ما يحدث دائمًا، كنتِ تقولين لأمى بعد كل زيارة:

- أنا هاخد عاطف يبات عندى يومين تلاتة.

وكانت أمى ترد:

- لأ... عاطف شيطان... هيدوخك وانتى تعبانة ومش هتقدرى عليه.

وكنتُ أقف أنا موقفًا حياديًا بين شوقى للذهاب معكِ وبين أصدقائى واللعب معهم، أما فى الليلة الأخيرة – الليلة الأخيرة فقط - وافقت أمى وكنتُ مشتاقًا لكِ بشكل مرضى، كنتُ ممسوسًا بكِ، غير إنكِ قلتِ بجفاء:

- أنا مش قادرة أجر وأسحب.. هو أنا ليا حيل للعيال.

ضحكت أمى عليكِ واستغربت.

- انتى يا مّه ماشية معايا خلف خلاف! عاملة زى الشريك المخالف، أقول لك خديه تقول لى لأ، أقول لك ما تاخدهوش تزعلى منى.. مابقيتش أعرف أريحك!

لم تكن أمى تعلم بسرك، بنيتك المبيتة فى الرحيل، رحيمة أنتِ بى؛ أشفقتِ علىَّ من رؤيتك ميتة، خفتِ أن تصيبنى لعنة الفراق إلى الأبد، فضلتِ أن تكون اللعنة من نصيب خالى محمد؛ هو الوحيد الذى كشفتِ له سرك الكبير حين عدتِ إلى منزلك واتصلتِ به.

- تعالى يا محمد بات معايا.. مش عارفة ليه خايفة أبات لوحدى النهار ده!

ولكن لعنة الفراق أصابتنى رغم كل شئ، كانوا يغسلونكِ ويبكونكِ وأنا أقف منزويًا ووحيدًا فى غرفتك. لم أشعر بروحى وهى تُنزع منى وتنام على سريرك، وتندس فى حضنك.

-4-

تحكى:

- أنا أصلاً مش من هنا.. أنا اتولدت فى الإسماعيلية.. أبويا كان شغال سواق عند المحافظ.. كل عمامى كانوا فلاحين.. إلا هو.. كان دايمًا يقول:

"لقمة العيش اللى تحنى الضهر تغور.. الواحد يموت من الجوع ولا يطاطى أبدًا.. الراجل ماينحنيش".

كات أيام عز والله.. كل يوم وهو راجع م الشغل بالليل.. يجيب لفة الفاكهة واللحمة والفينو.. كات لحمة بجد مش زى لحمة اليومين دول المعمولة من الكاوتش.. وكان رغيف الفينو يشبع نفرين.. مش نازل عليه التخفيض زى عيش الأيام دى.. كات أيام حلوة.. بالنهار لعب وتنطيط.. وبالليل نتلف حولين بابور الجاز.. وتقعد أمى تحكى لنا حواديت وتقول لنا نكت وفوازير.. أوحش حاجة فى الفلاحين الناموس.. كنا بندهن أيدينا ورجلينا بالجاز عشان نعرف ننام.. أيام حلوة يا ريتها دامت.. لكن آدى الله وآدى حكمته.. المهم.. بعد كدة أبويا قتل سواق مقطورة.. آه.. قتله.. ضربه بالفاس على دماغه.. ما هو الراجل برضه كان يستحق القتل.. كان بيعاكس أمى فى الرايحة والجاية ويقولها:

"يا جميل.. تعالى أدفيكى م البرد.. عنتر بيبعتلك السلام.. صاحب المزاج يكيف ويتكيف".

وخد عندك كلام قبيح من ده.. وأنا أبويا دمه حامى.. أول ما أمى اشتكت.. جرى.. قتل الراجل ورجعلنا كله دم.. ولا خاف ولا همه حد.. تقولش قتل فرخة.. أمى قعدت تعيط وتصوت وتلطم لغاية لما أبويا ضربها.. بس.. لمينا حتتين العفش وهربنا على الإسماعيلية.. الإسماعيلية المركز مش الأرياف.. خدنا بيت أى كلام عند الترعة.. الترعة الصغيرة اللى فى أول البلد.. البلاجات كت يعنى بعيدة عننا شوية.. أهى الناس كات بتقول إن عروسة البحر كات بتطلع من الترعة وتخطف الشباب.. وناس تانية كات بتقول إن الجنّية مش بتطلع من الترعة ولا حاجة.. دى كات بتعوم حلل ومواعين دهب وفضة على وش الميه واللى ينزل يبقى أمه داعية عليه.. وسمعت كمان أن الواد محسن اللى كان ساكن نواحينا.. وهو بيعوم قبل الفجر شاف مرَه عريانة.. كات جميلة.. جميلة أوى بت الهرمة.. الواد لما شافها كأنه أتسحر.. وقعد يغوط فى الترعة ويغوط.. تانى يوم الصبح بدرى.. الناس لاقيته مرمى مغمى عليه.. كان يا حبة عين أمه.. جسمه كله أزرق ووارم.. الناس افتكرته مات.. لكن هو ما ماتش.. قام من رقدته واحد تانى.. بقى يمشى فى الشوارع بشعره المنكوش ولبسه المقطع.. يحدف الناس بالطوب.. وكل ما حد يضايقه يقلع بلبوص.. والله الواد كان زى فلقة القمر.. يا حسرة أمه عليه.. أمى كمان سمعت النداهة.. بالليل أوى سمعت واحدة بتنادى باسمها:

"ثريا.. يا ثريا".

"مين بينادى؟".

"أنا أختك أم إبراهيم".

ماكنتش أم إبراهيم.. كات النداهة.. أمى عرفت على طول.. أصل أمى كان مكشوف عنها الحجاب.. ولما كات تبقى فى ضيقة.. كان السيد البدوى بيزوها فى المنام ويقولها:

"ما تخفيش يا ثريا.. فرجه قريب.. قومى أتوضى وصلى".

وساعات كات بتلاقى فلوس تحت المخدة أو جوا الشوفينيرة.. أمى كات ست طيبة وغلبانة ومكسورة الجناح زى حالاتى.. أما أبويا بقى فكان راجل مفترى وعصبى.. يشخط ويزعق ويضرب على أقل حاجة.. المدعوق الأفيون لحس دماغه.. مرة اتخانق معايا.. كان مسطول.. ضربنى وضرب أمى وساب البيت من غير ولا مليم ومشى.. ساعتها أمى قعدت تزعق لى:

"طفشت الراجل يا بت الكلب.. هناكل منين دلوقت".

وأنا إيش عرفنى هناكل منين.. أنا كت عيلة صغيرة.. كان عندى حوالى كده سبع سنين.. سبع سنين ونص.. مش فاكرة.. المهم.. رحت ليلتها المولد عشان أتفرج على الاراجوز وصندوق الدنيا.. ولا اتفرجت ولا نيلة.. ورجعت البيت معيطة.. وأنا ماشية فى السكة لقيت ورقة ملفوفة.. شئ إلهى خلانى أوطى عليها وأخدها.. وبفتح الورقة لقيت

إيـه.. لقيـت خمستاشـر جنيـه ملفـوفين فيـهـا.. مـا صـدقتش نفسى.. جريت على أمى وأديتها الورقة وقلت لـها:

"خدى يا مّه.. شوفى لقيت إيه؟".

"ورينـى كـده.. دول خمستاشـر جنيـه.. لاقتـيهم فـين يـا بت؟!".

"لقيتهم عند المعدية".

اشترت أمـى بط ووز وفاكهـة.. وأكلنـا واتبسطنـا.. قعدنـا يجى شـهر كده نصرف فـى الفلـوس.. مـا الحاجـة أيامهـا كـت برخص التراب..العجيبة أن أول مـا أبويـا رجـع البيـت الفلـوس اتبخرت.. تقول "بسم الله الرحمن الرحيم" كان فيها عفريت.. أبويا راجل طيب.. بس الأفيون ابن الكلب قلب حالـه.. اليـوم اللـى عمـرى مـا أنسـاه أبـدًا.. يـوم مـا اليهـود ضـربوا الإسماعيلية.. كلنـا جرينـا علـى البحـر الكبيـر.. البحـر المـالح.. وقعدنا نغطس ونستخبى من الرصاص والقنابل.. مدرستى الجميلـة اتحرقت.. أبلـة سعاد ماتت وعم سيد البـواب.. "عم سيد راجل طيب.. وعم سنوسنى سرق فلوسى" أغنيـة كنـا بنقولها وإحنا صغيرين.. المدرسة كلها كـات بتحب عم سيد الطيب اللـى بُقـه كـان بيضـحك زى العيـال الصـغيرة.. أمـا عـم سنوسى فكـان راجـل عامـل زى النسـوان.. مـا كـانش بيبطـل خبث وفتنة لأبلة الناظرة.

مـش عارفـة ليـه النـاس الطيبـين دايمًـا همـا اللـى ربنـا بيفتكـرهم.. يمكـن عشـان يـرحمهم مـن قـرف الـدنيا وقـرف

ناسها.. المهم سبنا إسماعيلية ورحنا على مصر.. القاهرة يعنى.. أنا مش عارفة الناس كلها بتحب البلد دى على إيه.. أنا مش شايفة فيها حاجة كويسة.. زحمة وقرف وناس مش طايقة نفسها ده غير الغلا.. أبويا رجله دابت وحفيت على شغل مالاقش.. كان بيطلع خنقته علينا.. كل يوم ضرب وشتيمة وإهانة.. على رأى المثل "الفاضى يعمل قاضى" فعلاً قعدة الراجل فى البيت وحشة.. خصوصًا راجل زى أبويا طول النهار نايم.. وبالليل الجنونة تطلع علينا.. يصحى البيت كله.

"عايز شاى.. عايز قهوة.. ولعى النار للفحم.. اغسلى الجوزة.. تعالى ادعكيلى رجلى.. سخنى ميه.. حطى ده.. اعملى.. سوى".

أوامر وشخط وشتيمة وسبّ دين.. ما كانش يحب حاجة فى الدنيا أد الحشيش والأفيون.. أمى يا عينى عليها اتعلمت الخياطة.. فى الأول كات بتخيط للجيران والمعارف وبعد كده الناس عرفتها وبقت خياطة بريمو.. فى الأيام دى أبويا كان بيضرب أمى مرتين تلاتة فى اليوم.. يخطف منها الفلوس ويصرفها على كيفه.. كان بيشتمها ويقولها:

"أنا الراجل اللى آنيكى يا ولية يا وسخة".

كت أمى بتعيط كل ليلة.. أنا كمان كت بعيط على عياط أمى.. أصل أمى دى نور عينى.. عينى وروحى.. حتى القصص اللى كت اشتريتها عشان تسلينى سرقها أبويا وباعها وبتمنها لعب قمار على القهوة.. ليلتها اتخانق مع

الصعايدة.. مسكوه وضربوه علقة.. روح لنا البيت وهو عمال يتطوح ووشه كله متغرق دم.. لما فتحت له الباب ضربنى على وشى وزعق وقال:

"مش عاوز أسمع ولا كلمة أحسن أرميكم كلكم فى الشارع".

وسكتنا.. والله ولا فتحنا بُقنا.. إنما هو ما سكتش كان بيشتمنا ويضربنا كل يوم.. ماكنتش بشوفه فرحان أبدًا غير لما يكون مسطول أو سكران.. اتحايلت على أمى كتير أننا نطفش ونغور فى أى حتة ونبعد عن وش أبويا العكر ومن الدنيا كلها.. لكنها ما رضيتش أبدًا وقالت لى:

"الست من غير راجل تبقى زى الكلبة اليتيمة".

وفضلت الأيام تخبط فينا ونخبط فيها لغاية لما أبويا مات.. زعلت عليه وعيطت وأمى عيطت.. ما أعرفش ليه عيطنا عليه بالشكل ده.. ده أمى كت هتموت روحها عليه.. يظهر أننا كنا بنحبه.

إسماعيل بن عمى لما طلب إيدى من أمى كت طايرة من الفرحة.. إسماعيل بن حلال وبيحبنى وكان يتمنى لى الرضا أرضى.. لكن أمه ربنا ينتقم منها وقفت فى طريقنا.

"إزاى تتجوز واحدة أكبر منك بسنتين.. قال من همه ياخد واحدة أد أمه.. انت لازم تتجوز عيلة صغيرة عشان تدلعك وتهننك ولو كبرت تشيلك وتخدمك.. بص.. بقى كله إلا ثريا وبنتها.. يا إما أمك يا إما بنت ثريا.. اختار".

وإسماعيل اختار أمه وسابنى لوحدى أتفلق... واتجوزت أبوكم وكانت جوازة الندامة... طلب أيدى وهو فى الجيش.. وبعد كده هرب من الحرب... وستكم داخت السبع دوخات عشان تطلع شهادة إنه كان مجنون.. وهو عمل مجنون.. أو أتجنن بجد.. مش عارفة... ساعات بحس كده أنه مش طبيعى خالص... يقعد بالساعات ساكت.. وساعات تانية يلعب مع العيال كأنه لسه صغير... المهم... القاضى رفق بحاله... وسجنه.. بس فى الجيش... قعد يجى أكتر من خمستاشر سنة عسكرى فى الجيش... كان دايمًا يقول لى إنه أقدم من قائد الكتيبة.. وأنا قاعدت عند أمى زى البيت الوقف.. لا منى متجوزة ولا منى مطلقة.. وكل يوم والتانى أروح له آخر الدنيا... الجيش بتاعه كان فى حتة مقطوعة... كان وسط صحرا.. كت وأنا فى العربية أشوف الديابة بتلعب فى الخلا زى الكلاب... كات أيام سودا... كل الأيام اللى عيشتها مع أبوكم كات سودا... ماعشتش معاه يوم حلو.. خلفتكم وأنا برضه عند أمى.. ولما حسيت إنى تقلت عليها أوى بدأت أسافر بورسعيد.. حتتين هدوم على كام إزازة ريحة كانوا بيمشوا الحال شوية.. وبعد كده خرج.. واتحايلت عليه ياما عشان يشتغل.. طول عمره أنزوح وقال إيه يقولى أنا فنان ومافيش حد فاهمنى.. طب ده كلام والنبى يأكل عيش.. فنان إيه؟ هو بيغنى وللا بيمثل.. ده حتة نقاش ولا طلع ولا نزل..

أدى مسافر بقى له مدة ولا بعت كلمة ولا بعت قرش.. ولا حتى عبرنا... مش مهم.. أنا اتعودت على كده.

وتتوقف عن الكلام، فألمح دمعة تحاول الفرار، ولا أعرف لمَ بدأت حكايتها أو لمَ تتوقف دائمًا عند تلك النقطة! غير أننى لا أغضب ولا أطلب المزيد، فقط... أنتظر حضنها الدافئ حين يحتوينى، وقبلتها التى تلصقها على عينى وهى تقول:

- انت وأختك عندى بالدنيا... لو حكمت أبيع جلدى عشان أربيكم... هبيعه.

-5-

كذبتُ وقلت لكِ:

- الدكة وقعت على رجلى فى الفسحة.

فى هذا الصباح كنتُ قد هربت من المدرسة، ورحنا إلى مركز شباب إمبابة، أنا وأصحابى قفزنا من على السور العالى، وقسمنا أنفسنا إلى فريقين ولعبنا بالكرة... وعند الخروج لم أستطع أن أقفز من السور؛ صندوق الزبالة الذى كنَّا نستعين به فى الدخول والخروج من النادى اختفى. ظللتُ أتأرجح على حافة السور ويدىّ متشبثتين به. ضحكوا علىَّ فاربكنى ضحكهم، استجمعت شجاعتى وقفزت فألتوى كاحلى. كتمت الوجع خوفًا من سخريتهم.

ابتسمت وانزويت بعيدًا حتى رحلوا جميعًا، حاولت أن أقوم فشعرت بوجع شديد. الشارع كان خاليًا تمامًا من المارة فى ذلك الوقت المبكر.

فكرت "هنط على رجلى السليمة لغاية العربية البيضة اللى هناك".

وقفزت على ساقى السليمة حتى وصلت.

قلت "هكمل لغاية محل الكهربائى".

وأكملتُ... استمررتُ على هذه الحالة حتى البيت. كان الوجع قد ازداد بشكل لا يُحتمل. قلتِ:

- إيه اللى جابك بدرى كده؟ ومالك بتزك على رجلك ليه؟

كذبتُ.

ورحنا معًا للصيدلية، قال الدكتور:

- ده شكله كسر.. لازم يعمل أشعة.

من صيدلية أخرى اشتريتِ لى شاشًا أبيض ولففتِ به قدمى. كنتُ مبسوطًا لأننى سأتغيب عن المدرسة، ولكن بعد عدة أيام تورمت ساقى وتغيّر لونها وصارت زرقاء جدًا، كما أننى صرتُ عاجزًا عن المشى.

فى مستشفى الحميات وبخك الطبيب.

- ده اسمه تخلف وإهمال.. أنا ممكن دلوقت أعمل لك محضر.

بكيتِ واشتكيتِ من الفقر ومن أبى الذى سافر وترك لكِ كوم لحم فى عنقك بلا معين أو قرش. تعاطف معكِ الطبيب واشفق عليكِ، جبس ساقى وأعطاكِ عشرة جنيهات. لم تكتفِ، طلبتِ منى أن نذهب إلى خالى، كنتِ تعاتبيه، وكان هو يتملص منكِ ويتحجج بأنه مريض، وبأن التاكسى الذى يعمل عليه عند الميكانيكى.

- بقاله شهر عند الميكانيكى بيعمله عمرة.. وبيرفع الماتور.. وشغلانة سودة مش باين لها آخر.

ولكنه مسح دموعك ودس فى جيبى مبلغًا دون أن تراه أمل. كانت الفرحة تملأ عينيكِ وأنت تعدين الفلوس فى

الشارع. وكنتِ تمشى بسرعة وكأنكِ نسيتِ تمامًا أن قدمى كانت تؤلمنى كلما ضغطتُ عليها.

-6-

تهزنى...

- عاطف... يا واد يا عاطف.

فأستيقظ لأجد أبى واقفًا أمامى تحت الإضاءة الخافتة، فيختلط علىَّ الحلم باليقظة، وتبدو صورته مشوشة ومضطربة، أحدق فيه كأنى أرى حلمًا يتحقق، ويحملنى هو ويحتضننى بقوة حتى أشعر بأننى أتلاشى بداخله، أشم رائحة العرق والتعب والسفر حتى أنتشى، يشيلنى ويجلس بى على الكنبة الصغيرة بالصالة، ويسألنى:

- عامل إيه يا وحش؟

وأنا أنظر إليه فى فرح ونشوة وخجل، خجل حقيقى لا أعرف له سببًا!

- كويس.

عينى لا تكف عن التحديق فى شنط السفر الكبيرة والكراتين التى تحمل ألوانًا مختلفة ولهجات غريبة..

- وعامل إيه فى المدرسة؟

فتجيب أمى:

- ما انت عارفه.. شاطر وغاوى علام.

ثم تعاتبه:

- الغيبة طالت قوى.. أنا قلت إنك هتنزل لما تعرف إن أمى ماتت.. ومن ساعة يا خويا ما سفرت ولا بعت كلمة ولا بعت قرش! نسيتنا خلاص؟

ويحكى لها عن الكفيل الذى أحبه واعتبره "عيل من عياله"، وعن ضغط الشغل، وعن الحرب التى قلبت الدنيا وجلبت الخراب والهدم على أهل البلد، وجلبت أيضًا الرزق له وللصنايعة وللمصريين.

- أنا ما أقدرش أنزل حتى من السكن من غير موافقة أبو الجاسم.. انتى فكراها سايبة.

ثمّ يحكى عن البلاد التى مر بها أثناء عودته..

- جت بظروفها.. الواد إبراهيم الكهربائى كان نازل بالعربية هو وابن عمه.. وأنا ورقى كان جاهز.

وتستفسر هى:

- يا خويا وانتم جيتم من آخر الدنيا فى العربية.. ده أكيد حيلك انهد.

يتركنا ويدخل لينام، وتطلب منى أمى أن أنام أيضًا، فأدخل الحجرة وأندس إلى جوار شيماء، أغطى وجهى بالملاءة ولا أغمض جفن، وأفكر فى تلك البلاد البعيدة ذات الشوارع الواسعة، وهل يوجد فعلاً بلد بحالها كل سكانها أغنياء: أصحاب شركات ومصانع وشيوخ وأمراء؟ وأفكر – أيضًا – فى الجنسيات المختلفة التى تعمل هناك، وفى الشمس الحارقة التى تأكل الدماغ.

وفى الصباح، يحضر الأقارب والأصدقاء فتوزع الهدايا والجلابيب المطرزة، وتمتلئ الثلاجة بالمأكولات والعصائر والفاكهة، وأجرى فى الشقة هنا وهناك، فرحًا وسعيدًا بنظرات الإعجاب التى تحيط أبى الجالس بينهم كملك منتصر عاد لتوه من معركة ظافرة، وعلى حجره ترقد شيماء كأميرة صغيرة بملابس جديدة ونظيفة ووجه مبتسم.

وفى المساء، أرتدى الترننج الجديد، والكوتش الذى يصدر نورًا كلما ضَغطتُ عليه، وأمشى بجوار أبى حتى نصل إلى محل ضخم جدًا يبيع الألعاب، فور دخولنا المحل يقول:

- وعد الحر دَين عليه.. أجرى نقى العجلة اللى تعجبك.

تخطف بصرى الدراجة الكبيرة، أتأملها وأحوم حولها، ثم أشير عليها..

- دى.

فيضحك أبى، ويضحك البائع، ويقول صاحب المحل:

- مش صغيرة عليك شوية؟

بسذاجة أرد:

- لأه.. دى كبيرة.

ويقول أبى:

- لو قدرت تسوقها.. هجيبهالك.

وأحاول أن أعتليها فأسقط وتسقط هى عليّ.

****

وترتمى السعادة فى حضنى فلا أفلتها. أتغيب عن المدرسة بأمر من أبى، وألعب بالعجلة طوال النهار فى الشوارع بملابسى الجديدة، وأستمتع بإغاظة العيال، ويقضى أبى يومه فى محاولة لتحقيق حلم قديم "المزرعة: أرض واسعة لتربية الدواجن والحيوانات وبيت بطابقين". يلف مع السماسرة، يعاين الأراضى والبيوت هنا وهناك حتى ينال منه اليأس، فتقترح أمى:

- تعالى نروح الإسماعيلية، الأراضى هناك برخص التراب.

ولكنه يعلن أن الإجازة انتهت.

- المرة اللى جاية إن شاء الله... حتى أكون خدت فلوسى من الراجل، أكيش وأشترى على طول.

وأذهب معه أنا وشيماء وأمى إلى المطار... أنبهر من السلالم الكهربائية التى تصعد من تلقاء نفسها، وأتمنى أن أصعد بها، وأتذكر الفيلم الكارتون الذى رأيته من عدة أيام... الرجل الذى يزرع شجرة عملاقة ويسقيها فتنمو حتى تصل

إلى السحاب، ويتسلقها فيجد كوخًا خشبيًا معلقًا بين السماء والأرض، ومكتوبًا على بابه "مسكن الرب" وبداخله رجل عجوز بلحية بيضاء طويلة جدًا... وقتها فكرت: لمَ لا ينزل الرب ويعيش معنا بدلاً من الوحدة؟ وشعرتُ أيضًا بالشفقة عليه!

ألح على أمى كى تسمح لنا بالصعود على تلك السلالم فترفض وتقول:

- أنا أمشى سنة ولا أعدى قنى.

فى طريق العودة، أطل برأسى من نافذة التاكسى، أنظر إلى السماء البعيدة، وأشعة الشمس الخفيفة تدغدغ وجهى، أتطلع إلى السحب فيعجبنى لونها الأبيض الناصع، وأكوّن منها وجوهًا وأشكالاً وعالمًا يخصنى وحدى.

-7-

سامى صديقى عالم وساحر- هو أول من تعرفت عليه فى سكننا الجديد - بإمكانه أن يسخط الشيطان قردًا، هو رأى

الثور الذى يحمل الكرة الأرضية على قرنيه وتحدث معه أيضًا، قال له بعنف "ما تحركش قرونك عشان لما بتحركها بيحصل عندنا زلزال"، واستجاب له الثور خانعًا خاضعًا، سامى صديقى الوحيد، ليس لى أصدقاء غيره، نتسكع سويًا فى الشوارع، نلعب بالكرة ونشاكس خلق الله، ونذاكر معًا، أنا أكتب له الواجب وهو يعلمنى بعضًا من سحره، قال لى مرّة:

- انت عارف؟ لو جبت بيضة وخرمتها ونزلت من قلبها الصفار وخليت البياض مكانه زى ما هو وحطيت نقطة دم جواها ودفنتها فى الرمل أربعين يوم.. عارف هيحصل إيه؟ هتتحول حاجة من اتنين... يا إما تبقى عيل صغير قوى أد عقلة الأصبع وشبهك تمام يعمل أى حاجة انت هتعملها...أو هتبقى دودة تفعصها فتنزل نقطة دم تمسح بيها جسمك.. ساعتها بقى أى بنت هتشاور لها هتجيلك وتعمل معها سيكو سيكو.. حتى لو كانت البنت أميرة.

يومها فكرت "يا ترى عقلة الأصبع اللى شبهى والا الدودة اللى هتخلى كل البنات تحبنى؟ عقلة الأصبع طبعًا"

وجربت مرارًا وتكرارًا ولكن كل محاولاتى فشلت، كيف أستخرج صفار البيضة وأبقى البياض على حاله؟ أمر مستحيل على أمثالى! ولكنه - بلا شك- هين على ساحر مخضرم مثل سامى، ورجوت سامى كثيرًا، وألححتُ فى رجائى ولكنه قال بلهجة المعتذر:

- أصل الحكاية دى ما تنعملش للواحد غير مرة واحدة بس فى حياته كلها.. وأنا عملتها قبل كدة.

فسألته بلهفة عما حدث، فقال بلا مبالاة:

- طلع لى عقلة الأصبع.. لعبت به شوية وبعد كدة موته.

وشعرت بالآسى والحزن على هذا المخلوق الصغير، وتخيلته جميلاً ومدهشًا، وتمنيت أن أمتلكه.

ومرت الأيام وحالة الحزن لم تفارقني، أستيقظ فى ليالى الشتاء، أبحث عن بيض فى الثلاجة، وأكرر المحاولة، وحين تستيقظ أمى تنتابها حالة من الغضب وتنفجر فى وجهى، أشرح لها الأمر، وأعلن عن رغبتى فى عقلة الأصبع، فتصيح قائلة:

- انت خلاص اتجننت.. الحواديت اللى بحكيها لك لحست عقلك.

وشكوت لسامى تكدر صفوى فوعدنى بتجربة سحرية فريدة سنقوم بها معًا، وراحت الخيالات تداعب رأسى، وطلبت منه أن يفصح عنها، ولكنه رفض.

لم أنم فى تلك الليلة، الهواجس والأحلام المرعبة ظلت تدهمنى طوال الليل، وفكرت "لو طلب منى أننا نحضر جنيًا أو عفريتًا مش هوافق"، وتذكرت عقلة الإصبع فانشرح صدرى، قد تكون هذه التجربة السحرية خاصة بهذا الشأن، ومر الليل بين الخوف والتمنى.

****

يسألنى:

- الواحد لما بيموت روحه بتروح فين؟

أفكر للحظات.

- بتروح فين ؟

فيسرع قائلاً وكأنه أمر بديهى:

-بتروح جسم واحد تانى.

أنظر إليه باستغراب، فيكمل:

- كل واحد بيموت روحه بتدخل جسم مولود جديد.. بس الواحد بقى ما بيعرفش الروح اللى جت له دى بتاعة مين.. يعنى انت مثلاً ممكن تكون روحك روح الملك سليمان.. أو راجل غنى زى الحاج مجدى.

نظريته تدهشنى، وأتخيل نفسى الملك سليمان أتحدث إلى الطير، وآمر الريح، وأُسخر الجن... غير أننى أخاف الجن.

- طب وأنا هعمل إيه بالكلام ده؟

- هتعمل إيه؟ هتعمل كتير.. مش ممكن تطلع روحك روح حد مهم فتبقى مهم زيه.. إحنا بقى هنحضر أروحنا وهنخليها تقولنا على كل حاجة.

ثم بلهجة آمرة يقول:

- نام.

دون أن أعى ألبى أمره، أرخى جسدى على الأرض وأغمض عينيّ، يتمتم هو ببعض الكلمات، لا أتمكن من سماع كلماته، ثم يصفعنى على خدى بعنف.

- قوم.

تؤلمنى الضربة، أكاد أن أنقض عليه، غير أنى أتراجع وأتمالك نفسى، لو أقدمتُ على حماقة ربما يسخطنى صرصارًا.

- خلاص.. خلاص.. أنا عرفت روحك كانت روح مين.

لا أرد، فالألم يتملكنى.

- روحك هى روح أينشتين.

تغمرنى فرحة عارمة رغم الوجع، أقول:

- بجد؟

- آه بجد... انت مش طول عمرك شاطر فى الحساب؟ عرفت بقى إيه السبب ... من النهار ده انت اللى هتعمل لى واجب الحساب... وأنا هساعدك فى الاختراعات اللى هتعملها.

- ماشى... طب وانت مش هتحضر روحك؟

- لأه...ما أنا عارف إن روحى كانت روح الأستاذ بتاع أينيشتاين.

****

التجربة العلمية الأولى التى أجريناها معًا كانت تشريح فأر ميت، لا أعلم من أين جلبه سامى... صلبناه بالمسامير على لوحٍ خشبى صغيرٍ، وبحثنا عن أيّة آلة حادة فى الشارع، فلم نجدً سوى زجاجًة مكسورة، حاولنا أن نبقر بها بطن الفأر، ولكن الزجاجة لم تكن حادة كما ينبغى، فعاودنا البحث، أنا بحثت على الرصيف الأيمن، وهو بحث على الرصيف الأيسر، بعد وقت، عثرت على موس حلاقة، بقرت بها بطن الفأر ورحتُ أملى سامى ملاحظاتى واستنتاجاتى:

- الفار الميت مفهوش وللا نقطة دم.. فى نقط بيضة وصغيرة قوى جوا بطنه.. وفى كمان حتت لحم شكلها معفن.

وسامى بجوارى يدون ما أقوله له، ولكنى أعجز عن الاستمرار، أشعر بألم فى معدتى وبرغبة ملحة فى التقيؤ، أتوقف عن العمل.

- إيه؟ كمل.

فأخبره عن رغبتى فى عدم استئناف هذه التجربة، يلتقط الفأر بأنامله ويرمى به فى مدخل عمارة، ثم يقول:

- احنا دلوقتى عندنا معلومات مهمة عن الفيران.

يفكر...

- إيه رأيك لو صورنا اللى كتبناه ووزعناه بعد صلاة الجمعة؟

فأقول لنفسى بمنتهى الفخر "لا مانع أن يتعلم الناس من علمى".

-8-

أعرف الرائحة جيدًا غير أننى أدعى الجهل، فتقول هى:

- طب استنى.. أنا هوريك حاجة عمرك فى حياتك ماشفتها.

وتقوم، وتخرج من الحجرة، ولا تنسى أن تغلق الباب خلفها.

هى أم صديقى، تستقبلنى – دومًا - بملابسها العارية: قمصان نوم شفافة وقصيرة ومفتوحة الصدر أو بنطلونات ضيقة جدًا وفانلات قطن تبرز حلمتيها.

فى الحقيقة، لم يكن صديقى، كان ولدًا غبيًا، أغبى تلميذ فى مدرستنا، وطلب منى مرّة أن أذاكر معه فى شقته، وقتها كنا نعد السكن الجديد، وكانت شقتنا لا تصلح للمذاكرة، وكان الوقت وقت امتحانات فوافقت، وذهبت مرة وثانية وثالثة حتى أدمنت الرؤية المثيرة... وجاءت الإجازة، فانقطعت زياراتى له لفترة طويلة – هكذا حسبتها - وكان الشوق يجرفنى للمرأة الأربيعينية الجميلة حتى ظهرت نتيجة الامتحانات، نجحت أنا ورسب هو فى مادتين، ورغم خوفى من والده – الرجل المتسخ دائمًا، الغليظ - إلا أننى تجرأت وذهبت إليه – بمعنى أدق إليها - صعدت السلالم المعتمة الضيقة وقلبى يرتجف من الخوف والنشوة، وعقلى يحدثنى أن اليوم غير الأيام الفائتة، طرقتُ بابها، وكانت هذه المرة ترتدى جلبابًا متسخًا يكشف عن ملتقى نهديها المكتنزين.
قالت:
- إزيك يا واد يا عاطف.. ما بتجيش ليه؟
ارتبكتُ، فقالت أيضًا:
- أدخل.
وفتحت الباب الموارب وأدخلتنى، قلتُ بخجل:
- أُمال فين عادل يا طنط؟
- مرمى فى الورشة مع أبوه.
ثم قَالت وأنا أقف فى الصالة:
- ينعل أبوه لأبو أبوه.

وأَضافتْ:

- أقعد وخد نفسك من السلالم الأول.

قعدتُ على الكنبة الكبيرة.

- النتيجة طلعت.

بلا مبالاة سَألتْ:

- والمنيل عمل إيه؟

سكتتُ، فأكملت هى:

- أكيد سقط.. ما هو فاشل زى اللى جابوه.

تشجعتُ وقلتُ لها أنه رسب فى مادتين فقط، وانتظرتُ ردة فعلها.

- أحسن.

قالتها بشماتة فاستغربتُ.

- هقوم أعمل لك حاجة تشربها.

تخللتنى الرائحة المثيرة، رائحة السكر والليمون على النار، عرفتها على الفور، قلتُ بخبث:

- فى ريحة غريبة فى الشقة! الظاهر إن فى حاجة بتتحرق.

ضحكت وسألتنى:

- انت مش عارف دى ريحة إيه؟

سكتتُ.

- دى حلاوة.

بسرعة قلتُ:

- انتى بتعملى حلاوة طحينية... يا طنط؟

فأطلقتْ ضحكة عالية:

- طحينية! دلوقت تشوف بعنيك.

وقالت أيضًا:

- طب استنى.. أنا هوريك حاجة عمرك فى حياتك ماشفتها.

وقامت وخَرجتْ من الحجرة، ولم تنس أن تغلق الباب خلفها.

عيناى معلقتان على الباب المُغلق، أغرق فى السعادة والقلق، ولا أعرف من أين تأتى شهوتى! وأحس بأننى مقدم على مغامرة فريدة، وتغيب هى طويلاً وأنتظرها أنا بصبر نافد.

-9-

متضايقًا وحانقًا عدتَ، هذه المرّة ليست كالمرّة الفائتة؛ لا شنط كبيرة ولا هدايا ولا كراتين ملونة. كنا ملتفين حول الطبلية نأكل، وكانت شيماء نائمة على حجر أمى، وكانت هى تحاول أن تُيقظها حتى دق الباب بعنف، قمتُ وفتحته، فوجدتك تقف تسد الباب، صرختُ بفرح:

- بابا!

وارتميتُ فى حضنك غير أنك أزحتنى عنك بعنف وقلتَ:

- أنا مش ناقصك انت كمان.

استغربتُ وانكمشتُ فى خوف، وقامت أمى فرحانة ومفزوعة.

- حمد لله على السلامة يا خويا.

فلم ترد، وسَألتْك عن سبب رجوعك المباغت، فزعقتَ:

- مش عاوز أتكلم مع حد.

ودَخلتَ الحجرة، وأغلقتَ الباب عليك، فلم نسمع سوى الصمت والحزن، نظرتُ إلى أمى بعيون حائرة فوجدتها أكثر حيرة منى، همَستْ:

- شوية كده ويروق.

ثم تسَاءلتْ:

- يا ترى إيه اللى حصل؟

ومرت الساعات دون أن تخرج من حجرتك، أحضرت هى الأكل ودقت على الباب:

- مجدى.. افتح يا مجدى.

لم تجب.

- هو إيه اللى حصل بس؟ اخرج! عاوزة أكلمك.

لا إجابة، لا رد، لا حركة.

ضرَبتْ على صدرها.

- يا لهوى! أحسن يكون حصله حاجة جواه!

وطَلَبتْ منى أن أحضر خالى محمد، ركبتُ العجلة وطيرت إلى بيت جدتى القديم، وهناك... أخبرتنى أمل أنه فى الشغل، كنتُ أعرف أنه نائم فى الداخل ولكنى لم أعارضها.

حين عدتُ إلى البيت وجدت أمى تبكى وشيماء تصرخ، وقد انقلبت الشقة وتكسر زجاج الدولاب. ماذا حدث؟ الأسئلة كانت تذوب فى فمى، وأنت بالداخل تجلس مع الجيران.

- إيه اللى حصل يا أبو عاطف؟ صلى على النبى.

فزعقتَ:

- ابن الكلب رحلنى بالجلابية اللى عليا.. خد شقايا كله.

وقال أحدهم:

- حصل إيه بس؟

فسكتَ، الفضول والخوف تملكانى فلم أكن أعرف ما يتوجب علىّ فعله! وقفتُ لدى الباب صامتًا وأنا أرى نظرات الشفقة والشماتة والتعجب وهى تخترق جسدك.

- إيه اللى حصل يا مجدى؟

- محصلش حاجة.. اللى حصل حصل.

وهدأت العاصفة، فلم يجرؤ أحد على إثارتها مجددًا.

****

مرت الأيام، وكانت حالتك تسوء، تتدهور، تتبدل، بدأتَ ترتدى الجلاليب البيضاء والغُترة والعقال الأسود، ولا تشرب سوى السجائر المستوردة الطويلة بالمبسم البنى، وتوقفت عن الشغل تمامًا، كلما جاءك زبونًا شتمته ولعنت أجداده، فقالوا عنك مجنونًا، وأسموك بالخليجى، حتى لهجتك تغّيرت، تنادى علىّ وتسأل:

- أيش لونتش؟

فأفكر.

- أبيض!

فتزعق.

- أيش هادا؟ أقول لتش أيش لونتش، فتقول أنا بخير.

وحين ترجوك أمى كى توافق على العمل، تصرخ فيها:

- بديتش أشتغل عند المصراوية، أيش عقلتش هادا؟ صرتِ مجنونة يا أم عاطف.

فتبكى هى وتنتحب وتقول:

- عليه العوض ومنه العوض.

تبيع – أنت - الكتب التى جمعتُها – أنا - على مدى أعوام، وتبيع العجلة، ثم تبيع الأجهزة الكهربائية قطعة

قطعة، وتشترى لنفسك خاتمًا ذهبيًا كبيرًا، حتى ملابس شيماء الجديدة بعتها كلها، فعادت حالتنا أسوأ من الأول، وحين نخرج معًا، ترفض أن تمشى إلى جوار أمى، وتطلب منها أن تسبقك، فتمشى هى وشيماء أمامنا، وأمشى أنا بجوارك، تقول لى:

- هادى مصراوية حقيرة، تشل المصرويات ولاد قحابى، ما فى أحلى من السورية.

لمّا زرتنى فى المدرسة ظنوا الأولاد أنك كويتى، فأصبح لقبى فى الشارع عاطف الخليجى وفى المدرسة عاطف الكويتى.

وتعود أمى للخياطة مُسلمة بقضاء الله.

- كأن ربنا ابتلانى بعيل معوق.

وأعمل أنا فى نادى فيديو، يبدو العمل بسيطًا وسهلاً؛ فى الصباح أمسح الشرائط بقطعة قماش صغيرة، وأزيل الغبار من على الأرفف الخشبية... وفى المساء أحضر الخوارج وهى قائمة كبيرة بأسماء وعناوين المتأخرين عن استرجاع الشرائط. يمر الوقت بين الشقق والعمارات، وأفرح حين يكون هناك مصعد كهربائى، وقتها أصطحب سامى معى، ونتلذذ بالعب فى الأسانسير، أحيانًا يسبّنا بواب العمارة فنشتمه ونجرى.

أدق الباب ويفتح أحدهم.

- أنا عاطف.. جاى من طرف الأستاذ محمد عبد الشافى صاحب نادى الفيديو.. عشان الشرايط المتأخرة.

وحين أشتاق إلى القراءة، أذهب إلى مكتبة المدرسة، تُعجب بى أمينة المكتبة وتنبهر من حضورى المستمر وشغفى الغريب بالكتب. تسألنى:

- بتحب القراية؟

فأرد.

- أكثر من الحياة.

أقولها باللغة العربية الفصحى، تتنبأ لى بأننى سأصبح كاتبًا أو شاعرًا، فلا أقول لها "أنا أصلاً عالم.. وروحى هى روح أينشتين".

يضربنى محمد عبد الشافى ويطردنى من المحل لأننى أخطأت مرّة وناديته باسمه دون لقب أستاذ، قلتُ له "يا محمد..." فقط.

وأنا فى الشارع أبكى من الوجع والمهانة، أتذكر لما كنتُ أعمل معك صبى نقاش، وكيف علمتنى سنفرة الحائط، وضرب المونة، ورسمة الكعبة والجَمل والسفينة حين كنتَ ترسمها على حائط أحد الحجاج مُزينة بالعبارة الشهيرة "حج مبرور وذنب مغفور" كنتُ على يقين بأنك فنان، وأتذكر أيضًا الشقق الكثيرة التى دخلناها معًا، شقق عرائس، بيوت جديدة، وشقق بها عائلات. كنتُ أحب الشقق الخالية من السكان؛

نظرة العطف التى كانت تطاردنى من أعين السكان كانت تزعجنى، كلماتهم كالسهام كانت تمزقنى.

- ابنك يا أسطى؟

فتمسح على رأسى بفخر.

- اسمه إيه؟

- عاطف.

ويسألوننى.

- وبتروح المدرسة يا عاطف؟

فتتولى أنت الإجابة.

- عاطف شاطر.. دايمًا بيطلع من الأوائل.

فنسمع.

- بسم الله.. ما شاء الله.

أو.

- ربنا يبارك فيه.

أو.

- باين عليه ذكى... هيكون له مستقبل بإذن الله.

وقت الغداء، كنا ننزوى جوار الحائط ونأكل فى صمت... حتى أكلك تغيّر. تزعق فى أمى وتقول:

- وين التبولة؟

أو.

- ما أبغى هادا الطعام، هادا طعام البهايم، أبغى تشبسة باللحم.

وتشتكى هى من كثرة طلباتك ومن تذمرك الدائم فتضربها وتطردها من الشقة، فتقعد هى على سلالم البيت وتبكى، تطبطب شيماء عليها، وأقول لها:

- تعالى نغور من وشه.

وتسألنى:

- همشى أروح فين بس؟ ومين هيستحملنا؟ اللى هيشيلنا النهار ده مش هيقدر يشيلنا على طول.

وأقترح عليها:

- أنا هشتغل وأصرف عليكِ.

فتبتسم وتأخذنى فى حضنها وتسكت، وتظل قاعدة على السلالم حتى يتدخل الجيران، ويتحايلون عليك كى تسمح لها بالدخول، وبعد مماطلة وعناء تقول:

- ما أبى أسمع لها صوت، شو صارت هى؟ صارت مجنونة؟ هى فى حالها وأنا فى حالى، وربى وما أعبد لأرميها فى الشارع لو فتحت خشمها.

وتدخل هى منكسرة، وتقضى أنت يومك فى سماع الشرائط الخليجية، وفى المساء تطلب منها الأكل، ثم علبة سجائر، فتعطينى فلوسًا وتطلب منى أن أشترى لك علبة سجائر مستوردة، فأغضب منها وأقول:

- انتى برضه هتصرفى عليه!

فتقول هى:

- معلش.. أصله غلبان وصعب عليا.

-10-

أصحى من النوم مبكرًا، البيت صامت وخالى ولا أسمع أيّة أصوات، لا أخاف، أنا معتاد على الوحدة، أنا أصلاً أحب الوحدة وأتحجج دائمًا كى تتركنى أمى فى البيت وتأخذ شيماء معها، خاصة فى المشاوير البعيدة.

أفكر فى أن أنادى على سامى لنلعب معًا أو نقوم ببعض التجارب العلمية.

أنزل من على السرير وأتجول فى الشقة، أدخل حجرة أمى وأرتمى على السرير وأقفز عاليًا، أضحك كثيرًا، أحس بأننى سأموت من الضحك، تعجبنى اللعبة ويعجبنى منظرى فى المرآة المتسخة الضخمة، أتنطط حتى أُرهق من التنطيط، أنزل من على السرير وأتجه نحو المرآة، أقف أمامها وأتأمل وجهى، أشب وأقف على أطراف أصابعى فأحس بأننى لازلت قصيرًا، كل العيال الذين فى مثل سنى وحتى الأصغر منى فى السن أطول منى، أشعر بالإحباط، أتفحص وجهى بعناية، وأفكر فى أن أحلق ذقنى، أن أدخل الحمام وأدهن وجهى بالصابون وأمرر عليه الموس، أتمنى أن تكون ذقنى كثيفة عندما أكبر، البنات يحبّن الذقون الطويلة، هكذا أخبرنى الولد أحمد، وأتمنى أيضًا أن أجرب العادة التى حدثنى عنها، أن أدلك عضوى وأستمتع كما قيل لى، ولكن خوف مبهم يمنعنى، دائمًا كنتُ أشعر أننى مراقب، أن هناك عينًا ضخمة تراقبنى من بعيد، ترصد كل تصرفاتى، وتتلصص علىّ، حتى فى أحلامى كنتُ أحس أن هناك من يسطو عليها ويحركها كيفما يشاء... مرّة، كنت فى شقة جدتى، وكان الوقت مبكرًا، وكانت هى تصنع لى الفطار، وكنت أحب الأكل غير أننى أكره اللبن، وأتقزز من رائحته، وكانت هى تفعل المستحيل كى أشرب اللبن، وكان التلفزيون يعرض برنامجى المفضل، وعندما رَفعتْ الكوب على فمى، قالت المذيعة وهى تشير نحوى، نعم تشير نحوى:

- أنا شايفة يا أصحابى ولد شاطر بيشرب اللبن.

صُعقت، وأحسست أنها تكلمنى أنا، وارتبكتُ ولم أكن أعرف كيف أتصرف! والتفت إلى جدتى وسألتها:

- هو التلفزيون بيشوفنا؟

فقالت:

- آه.. بيشوفنا.. اشرب بقى اللبن عشان أبله ما تزعلش منك.

وشربت اللبن على الفور، وفكرت: هى المذيعة دى بس اللى بتشوفنا ولا أى حد جوا التلفزيون.

وسألت جدتى، فقالت:

- لأ.. أبله دى بس هى اللى بتشوفك.

وغيرتنى تلك الوقعة تمامًا، وأصبحت لا أشاهد هذا البرنامج إلا وأنا فى كامل أناقتى، أرتدى أفضل ملابسى وأجلس أمامها بمنتهى الأدب والأخلاق، أشرب اللبن أو أستذكر دروسى أو أحكى لها عما حصل فى المدرسة، وعندما حصلت على 10 من 10 فى الإملاء، جريت إلى البيت، ورفضتُ أن يرى أحدًا كراستى قبل أن تراها هى – أقصد المذيعة – وفى اليوم التالى تغيبتُ عن المدرسة خصيصًا حتى أتمكن من رؤية البرنامج الصباحى، وبالفعل وقفت أمام التلفزيون وفتحت الكراسة، وألصقت الكراسة بالشاشة، ولكن المذيعة لم تهتم بى مطلقًا! كانت تتابع

برنامجها دون أدنى اهتمام! شعرت بإحباط شديد، وحكيت لجدتى، وأخبرتها إن "أبله زعلانة منى مش عارف ليه!".

فصارحتنى.

- التلفزيون مش بيشوفنا ولا حاجة.. أنا قلت لك كده عشان تشرب اللبن.. مافيش حد بيشوفنا.

الغريب أننى انقلبت إلى النقيض، أشتم المذيعة وأخرج لها لسانى كلما عُرض البرنامج، ومرّة دلقت اللبن أمامها وانتظرت أن توبخنى غير أنها لم تفعل، ومرّة أخرى خلعت كل ملابسى أمامها ورحت أرقص عاريًا كما ترقص القبائل الأفريقية.

وقتها أيقنت أن لا أحد يتلصص علينا!

أنا الآن أفتح دولاب أمى الطويل، أستخرج ملابسها الداخلية: الشفافة، القصيرة جدًا، الطويلة جدًا، ومكشوفة الصدر.

ألتقط قميصًا وأقرر أن ألبسه! ألطخ وجهى بمساحيق المكياج: الأحمر على وجنتىَّ، الأسود حول العينين، والروج البنى الغامق على شفتىَّ.

أمشى متبخترًا فى الحجرة وأنا أقول بصوت عالٍ:

- أنا ماما.. أنا ماما.. وعاطف هو راجل البيت.. هو اللى هجيب لى كل اللى نفسى فيه.

وأضحك، وأتخيل سامى لو رأنى بهذا المنظر، حتمًا سينفجر من الضحك، سينفجر من الضحك علىَّ.

مساحات للدهشة والوجع

-1-

فى القناطر الخيرية أتعرف عليها، عزة طالبة فى الصف الثالث الإعدادى، تبدو دائمًا هادئة ومحرجة، لا تنظر إلى عينى أبدًا، أحدثها عن أختى وأمى، وأخبرها بأننى فى الصف الثانى الثانوى علمى، وأننى سأصبح دكتورًا وأديبًا مثل مصطفى محمود، عزة لا تحب القراءة، تجدها مملة وتشتكى من الكتب المدرسية، وتستغرب منى لأننى أقرأ كثيرًا... فى عيد الحب أكتب لها أغنية "أغدًا ألقاك" لأم كلثوم، وأهديها شريطًا لكاظم الساهر، عزة تحب محمد فؤاد، ولا تفهم أغانى أم كلثوم.

ألتحق بكلية الحقوق جامعة القاهرة، أذهب إلى الجامعة بملابسى الجديدة التى اشتريتها من بورسعيد، أحوم حول المبانى حتى أتعب من المشى، فأستريح تحت تمثال الحركة الطلابية أو تمثال زوزو كما سأعرف فيما بعد، أحس بالغربة والوحشة وبأننى وحيد ومنبوذ.

فى المحاضرة، أجلس فى آخر صف، أشعل سيجارة وأنظر إلى الطلبة فى صمت، أُحرج من العامل الذى وبخنى من أجل السيجارة ولفت النظر إليّ.

على القهوة، يضع لى سامى خطة محكمة تقربنى من الطالبات:

1- تسأل الفتاة عن جدول المحاضرات.

2- تخبرها بأنه اليوم الأول لك ولا تتحدث إلا فى أمور عامة.

3- تشكرها بلطف وتتمنى منها أن تراها فى المحاضرة المقبلة؛ لأنها إنسانة محترمة مثل أختك.

تنجح الخطة، وفى وقت قصير أتعرف على طالبات كثيرات؛ طالبة واحدة تعرفك على أخرى وأخرى فتتسع الدائرة.

لتغطية مصاريف الكلية أعمل مندوب مبيعات لدى شركة بطاطس، أمر على المحلات والدكاكين، أبيع الكرتونة بسعر أقل من بائع الجملة فى مقابل لصق بوستر الشركة على واجهة المحل، لكل محل كرتونة واحدة فقط، غير أننى – حين يبتعد المشرف بقدر كافٍ – أبيع أكثر من كرتونة للمحل الواحد، تبدو لى هذه المهنة متعبة وغير مريحة.

بعد فترة... أعمل كمحصل للأتوبيسات الخاصة، أنادى بصوت مرتفع:

- أرض اللوا؟ بولاق؟

وأصوب إصبعى نحو المارة، أُحصل الفلوس، أرتبها، الأوراق الكبيرة فى جيب البنطلون الخلفى، والمعدنية فى الجيب الأمامى.

أتعرف على نساء كثيرات يركبّن معى خصيصًا، ويسموننى الأبيض، أحس أن لهجتى تتغير فأتحدث مع السائقين والركاب بلسان ثقيل كأنى مسطول، أفكر "هذه هى الطريقة الوحيدة للتعامل مع هؤلاء!".

حين أعود إلى الجامعة، أعود طالبًا من جديد، أندهش من قدرتى على التحول السريع، وأتساءل "هل أنا مصاب بانفصام فى الشخصية؟" سيظل هذا السؤال معلقًا فى عقلى باقى العمر.

سها تحب القراءة، وتحب أغانى كاظم الساهر، وتفهم أغانى أم كلثوم، تتحول الصداقة فى وقت قصير جدًا إلى حب، تكلمنى بالتليفون كل يوم بعد الدراسة لتطمئن علىّ، نقضى طوال النهار معًا، نأكل من عند صبرى أمام الجامعة، أحكى لها أحلامى وأمنياتى فتقول:

- أنا أمنيتى الوحيدة... أننا نفضل مع بعض على طول.

تتخرج هى من الجامعة، وأرسب أنا فى السنة النهائية، تتعقد الأمور، أفكر فى الوظيفة وفى إعالة أمى وأختى، وتفكر هى فى الشقة والأثاث والذهب؛ تُغير رقم هاتفها، وتتوقف عن الاتصال بى، وتتزوج.

-2-

أدون فى الاستمارة بيناتى بخط واضح: اسمى بالكامل، تاريخ ميلادى، محل الإقامة، مؤهلى الدراسى، موقفى من التجنيد، ورقم هاتفى.

أجلس فى البيت منتظرًا المكالمة التى ستحولنى من عاطل إلى مواطن صالح يخدم بلده ونفسه وجيبه.

فى اليوم التالى، بالتحديد، فى العاشرة وسبع دقائق تأتى المكالمة، أفرح وأندهش وأظن أن كل مشاكلى قد انتهت.

فى اليوم الأول، يقول المشرف:

- العربية والبضاعة أمانة فى عهدتك.

أتذكر إيصال الأمانة التى كتبته على نفسى فأرتجف.

نجوبا الشوارع والحوارى طوال النهار أنا والسائق، نلف على المحلات والدكاكين، نبيع البضاعة ونحصل الأموال. تتكدس الفلوس فى جيب بنطلونى الجينز. وفى السادسة مساءً نعود إلى المصنع.

أظن أن عملى قد انتهى ولكنى أفاجأ بأنى مطالب بجرد البضاعة المتبقية ثم تسديد الأموال لعم إبراهيم الصراف الذى لا يقبل العملات المعدنية والفكة، فأجبر على البحث عمن يصحح لى الفلوس، ثم علىَّ أن أكتب طلب بالبضاعة المباعة حتى أتمكن من أخذ غيرها من الثلاجات. وبعد ذلك أرص الكراتين فى السيارة.

أنتهى من العمل فى منتصف الليل تقريبًا، وأمشى حوالى 4 كيلو فى الصحراء حتى أصل إلى الطريق الرئيسى.

أصل البيت بعد منتصف الليل بساعتين فلا آكل شيئًا، أرتمى على السرير فأحلم بأكواب الزبادى وعلب الجبن حتى أصحو على صوت المنبه فى السادسة صباحًا، ورغم ذلك يوبخنى المشرف ويخصم منى نصف يوم لأننى جئتُ المصنع متأخرًا.

فى مساء هذا اليوم أكتشف أننى فقدت 20 جنيهًا فيقرضنى مندوبًا لا أعرفه المبلغ المفقود، أشعر وكأنى

صرت متسولاً، أحلف لـه بـأننى سأرد لـه هذا المبلـغ غدًا فيهز رأسه ويسكت. لن أعثر عليه بعد هذا اليوم، سأسأل عنه الجميع ولن يتعرف عليه أحد كأنه سراب.

بعد أسبوع، يمرض أمجد السائق وينقطع فجأة عن العمل.

السـائق الجديـد لا يسـاعدنى علـى حمـل البضـاعة، يتجاهلنى تمامًـا ولا يتكلم إلا عند الضرورة، ولا يتوقف لحظة عن معاكسة البنات.

أحس بأن العمل بدون أمجد لا يطاق.

بعد شهر، يعود أمجد للمصنع، أفرح به وأعرف منـه أنـه كـان مريضًـا، وأنـه أجـرى عمليـة خطيـرة فـى الغضروف، غير أن المسؤولين فى المصنع لم يقتنعوا بالتحاليـل والتقـارير الطبيـة التـى احضـرها فاحـالوه للتحقيق، وهناك طلب رؤية الباشا صاحب المصنع.

قال له الباشا:

- لـو عـاوز ترجـع الشـغل فـى مقطـورة تحـت انـزل اغسلها.

يجلس أمجد مع المندوبين والسائقين ويقص عليهم ما حصل، يتعاطفوا معه فيقرروا أن يغسلوا المقطورة بدلاً منه.

وأقرر أنا أن أترك هذه الوظيفة نهائيًا.

-3-

الشنطة البلاستيكية السوداء الثقيلة تمزق كفى وأصابعى وتجذب ذراعى نحو الأسفل بعنف، ألم شديد يشمل ذراعى ويصل إلى كتفى، والرجل الطويل الذى أكرهه يمشى أمامى بخطى مسرعة غير مهتم بى، أراه ينحرف يمينًا، فأسرع حتى لا أفقده، أجده واقفًا أمام حارة صغيرة، ضيقة، وبائسة. يرانى فيشير نحو المبانى الواطئة، ويقول:

- الشارع ده بتاعك.

فأهز رأسى ولا أنطق بكلمة، ويتركنى هو أواجه مصيرى، أفكر فى المشوار الطويل الذى سأمشيه كلما فَرغتْ شنطتى، وأفكر أيضًا أن أبدأ عملى من آخر الحارة... وفى منتصف الطريق أجد نسوة جالسات أمام كشك حلويات، أقترب منهن وأجاهد لكى أقتل حرجى، أقف أمامهن وأضع الكيس البلاستيكى بين قدمىّ. أقول:

- السلامو عليكو.. ممكن أعطلكم دقيقة.

ينظرن إلىَّ باستغراب، وتقول المرأة صاحبة الكشك:

- وعليكم السلام ..اتفضل يا بني.

أبتلع ريقى، وأختلس نظرة خاطفة نحو المرأة التى تُرضع صغيرها، صدرها أبيض ومكتنز، أغض بصرى سريعًا.

- مع حضرتكم عاطف مجدى من شركة أميدى جروب.. النهار ده الشركة مقدمة عرض جديد ومتميز.

وأدب يدى داخل الكيس وأستخرج طقم أكواب.

- دول ست كوبايات شاى حراري.. اللؤلؤة الأصلي.. ده سعره فى الأسواق والمعارض خمستاشر جنيه.. النهار دا الشركة بتقدمه بعشرة جنيه.

وأناول المرأة صاحبة الكشك الطقم الذى كُتب عليه "مصانع ياسين... فرز ثالث" فتقول المرأة التى ترضع صغيرها:

- ورينى كده يا أم محمد.

فأنتهز الفرصة وأطيل النظر إلى نهدها النافر، وتحس هى بى، فتكشف لى جزءًا أكبر من صدرها بحركة بدت عفوية. أدس يدى فى الكيس مجددًا وأستخرج منه (6) أكواب طويلة وأقول:

- حضرتك لو استفدتى بالعرض اللى معانا... هاتخدى ست كوبايات للمية والعصير هدية.

فتقول المرأة ذات النهد المكتنز:

- يعنى الاتناشر دول بعشرة جنية؟ دول يبقوا غاليين قوى.

فأخرج آخر ما فى الشنطة: (6) أكواب صغيرة جدًا.

- وفى كمان ست كوبايات قهوة هدية.. يعنى حضرتك تشترى من شركتنا ستة شاى اللؤلؤة الأصلى بعشرة جنيه

بدل خمستاشر جنيه وبتاخدى عليهم ستة قهوة وستة تانيين للعصير والميه.. يبقى المجموع تمنتاشر كوباية بسعر ستة.

تقول المرأة و هى تدفن ثديها داخل ملابسها:

- والنبى حلويين.. لو كان معايا فلوس كنت خدتهم.. هتخدى منهم يا أم محمد؟

فترد أم محمد:

- والنبى ياختى ما معايا وللا نكلة.

أشعر بأنى استنفدت وقتى، فأتناول من أيديهن الأطقم وأحرص على لمس يد المرأة أم الرضيع، وأشرع فى توضيب الكيس. تقول المرأة صاحبة الكشك:

- انت باين عليك ابن ناس.. استنى كده هشوف أم رشا.. بتجهز بنتها.. يمكن تنفعك.

وحين تنادى على أم رشا، أُحرج وأتمنى أن أمشى، وتنظر إلىَّ المرأة أم الرضيع وتضحك، فأرتبك وأبحث عن كلمة ملائمة أبدأ بها الحديث، ولكن الخجل يلجمنى ويعقد لسانى، وأنتظر أن تبدأ هى ولكنها تخذلنى وتنشغل عنى بمداعبة طفلها.

وتطل فتاة منكوشة الشعر من نافذة الدور الأرضى وتقول لصاحبة الكشك:

- عاوزة حاجة يا خالتى ؟
- أمك عندك يا رشا؟
- أيوة جوه.. أناديها لك؟

- طب شوفيها كده عايزة كوبايات و للا لأ؟
- حاضر.
وتختفى رشا لمدة دقيقة كاملة ثم تعود قائلة:
- متشكرين يا خالتي.. أمى مش عاوزة.
فأقبض على الكيس وأمشى دون أن أشكر المرأة صاحبة الكشك، وحين أبتعد عن المكان بقدر كافٍ، ألتفت وأنظر ناحية المرأة أم الطفل فأجدها قبيحة للغاية، ومن ملامحها أدرك أنها أربعينية، فى أواخر الأربعينيات، ورغم ذلك سيظل منظر نهدها معلقًا فى مخيلتى لفترة طويلة.

****

ماذا يوجد خلف الأبواب المغلقة؟ أفكر "أين قرأت تلك المقولة؟" حين أكور قبضتى وأدق على الباب، يداهمنى ذات الهاجس اللعين "ماذا لو فتح لى أحد زملائى بالكلية، ماذا لو أنى أطرق باب سها دون أن أدرى، ماذا سأفعل وقتها؟ ولماذا لم أسألها عن عنوانها حتى أريح نفسى من هذا العناء؟" خفت أن تسألنى عن مسكنى، أن تقول لى "انت ساكن فين؟" فلمَ لم أكذب عليها؟ ولماذا سكتُ؟ أسمع صوت المزلاج يتحرك، فيتحرك قلبى معه، تفتح الباب طفلة فى السابعة من العمر تقريبًا وتبتسم فى وجهى. أقول لها:
- ماما موجودة يا حبيبتي؟
فتقول الطفلة:

- أقول لها مين؟
- مندوب مبيعات.
وأسمع صوت امرأة تصيح من الداخل:
- مين على الباب يا مريم؟
فتقول البنت:
- بيقول مندوب مبيعات يا ماما.
وتصرخ المرأة قائلة:
- قوليله مش عاوزين حاجة.. واقفلى الباب.
قبل أن تنطق الطفلة، أحمل البضاعة وأمنحها ابتسامة، أصعد السلالم، وحين أقترب من الطابق التالى، يصلنى صوت نسوة يضحكن، أصعد درجات أخرى، فأرى باب الشقة مفتوحًا ونساء تقرفصن داخل الشقة ويطبخن، أنزل درجتين و أقول بصوت عالٍ:
- السلامو عليكو.
يصمتن فجأة، وتتساءل إحداهن:
- هو فى حد برا؟
فألقى السلام مجددًا، وأصعد الدرجتين حتى يتمكن من رؤيتى، أقول لهن:
- معاكم عاطف مجدى مندوب مبيعات من شركة أميـ...
وقبل أن أستكمل كلامى، تقول إحداهن:
- متشكرين.. مش عاوزين حاجة.

ماء مثلج ينسكب فوق رأسى، أرتبك للحظات، وألعنهن وأسبّهن فى سرى، ورغم غضبى وخجلى، أرسم على وجهى ابتسامة وأقول:

- فى حد فى الشقة دى؟

وأشير نحو الشقة المقابلة، فتقول امرأة:

- موجودين جوا يا خويا.. خبط عليهم يمكن ربنا يسهل لك.

أبتسم مجددًا.

- شكرًا.

وأتجه نحو الشقة المقابلة، أضع الكيس على الأرض، وأتمنى أن ينغلق الباب المفتوح، أدق على الباب، وأنتظر أن يرد أحد، ويمر الوقت بلا إجابة، ولكنى أسمع أصوات بالداخل، فأطرق الباب مرّة أخرى وأنتظر، أتحاشى النظر نحو الباب المفتوح، وأهم بالتقاط الكيس ومغادرة المكان، غير أنى أسمع الباب ينفتح، فتظهر أمامى امرأة ترتدى قميص نوم طويلٍ وشفافٍ، وقبل أن أنطق بكلمة، تنظر هى لى طويلاً، وتصرخ فى وجهى:

- عاوز إيه انت كمان؟

صوتها العالى لفت انتباه النسوة الأخريات، أتلعثم وأبتلع ريقى وأقول:

- حضرتك أنا مندوب مبيعات.

فتزعق:

- مش عاوزين حاجة، غور من قدامي.

وتصفق الباب بعنف، ليست المرة الأولى التى يحدث لى أمرًا كهذا، ولكنها المرة الأولى التى أُهان فيها أمام كل هذا العدد... والنساء تنظرن إلىَّ بشفقة تزيد من سوء الموقف، أتحاشى النظر نحوهن، ولكن كلماتهن تصلنى فتمزق قلبى "شكله ابن ناس.. دى ولية مفترية.. حرام عليها.. والنبى صعب عليّ"

أتجاوز الشقة المفتوحة بسرعة، وأنزل على السلالم ببطء، لا أتمالك نفسى، فأترك دموعى تنهمر، وأرفض أن أمسحها.

****

يرانى الرجل الطويل قادمًا من بعيدٍ، فيجرى نحوى، ويسألنى عن سبب رجوعى بالبضاعة، ولكنى لا أتكلم، فيدرك أن هناك أمرًا ما، يحمل عنى الكيس الثقيل، ويمشى بجوارى، إنها المرة الأولى التى يمشى فيها بجوارى، يحترم صمتى، وعلى القهوة يطلب لى عصير ليمون، أعلم بأنه سيدفع ضعف ثمنه، هذا ما اتفقنا عليه مع صاحب القهوة، تركنا نضع البضاعة فى القهوة مقابل مضاعفة سعر المشروب، وحين طلبتُ منه شايًا، قال صاحب القهوة "الشاى خلص وبعت أجيب... اشرب حاجة ساقعة"، وبعد قليل وجدته يضع كوب شاى أمام أحد الزبائن.

أجلس على كرسى خشبى متهالك، وأدفن وجهى بين راحتيّ، الرجل الطويل يجلس إلى جوارى ويربت على فخذى، أنظر له بعينين دامعتين وأقص عليه ما حصل، لا يعقب على حديثى المطول، يطلب منى أن أشرب العصير، أمتن له وأشعر بأنه ليس سيئًا كما كنت أظن دومًا، وأفكر فى العشرة جنيهات التى بحوزتى... ثلاثة جنيهات من أجل علبة السجائر، جنيهان ثمن الكولا، ثلاثة جنيهات للمواصلات، وجنيهان للعشاء.

أشرب من كوب الليمون السيئ، وأتذكر نهد المرأة القبيحة، وأحكى للرجل الطويل عنها فيضحك ويقص على العديد من الحكايات المماثلة، ويحكى لى عن المرأة التى راودته عن نفسه وكاد أن ينالها لولا طفلها الصغير الذى استيقظ فى الوقت المناسب. أنتهى من كوب العصير وأتناول الكيس، فيسألنى:

- هتنزل الشغل؟

أهز رأسى، وأوضب الأطقم بداخل الكيس وحين أفرغ من عملى، أقول له:

- أنا عاوزك توزعنى فى شارع تانى.. مش عاوز أروح نفس الحارة.

-4-

أفتش عنها فى أدراج الكومودينو، وتحت المخدات، حتى ملابس شيماء أبعثرها وأبحث فيها، وبعد قرابة الساعة إلا

ربع، وبعد أن يصبنى الإعياء، أتذكر أننى خبأتها داخل الأجندة التى كنت أكتب فيها أشعارى فوق الدولاب، أسحب كرسيًا وأقف عليه، أتحسس بيدى حتى أعثر عليها، أفتح الأجندة فيطمئن قلبى برؤية القطعة البنية الصغيرة، على الآن أن أمزق ورقة سلوفان من داخل علبة السجائر السوبر، وألف بها القطعة ثم أسخنها جيدًا، وبعد ذلك أفرك عليها سيجارة ثم ألفها بورق البفرة، غير أننى لا أملك دفتر بفرة، لذا سألجأ للطريقة التى أكرهها... أحضر كوبًا زجاجيًا من المطبخ، وأقسم سيجارة إلى نصفين، وبالموس أقطع الحشيش شرائح رقيقة جدًا، ثمّ أضع شريحة تحت الكوب وأضغط عليها بقوة، وأعلقها فى النصف السفلى من السيجارة المقسومة، وأشعلها – شريحة الحشيش طبعًا – وبعد ذلك أثبت السيجارة بالحشيش داخل الكوب وأغلق فجوة الكوب بالأجندة. هذه الطريقة فى الشرب أكرهها فعلاً؛ أولاً: تصيبنى بضيق فى التنفس، ثانيًا: مفعولها سريع جدًا وأنا رأسى خفيفة رغم أننى أشرب بشكل يومى تقريبًا.

زملائى فى الورشة يحسدوننى لأن رأسى لا تحتمل أكثر من سيجارتين، بعدها أتكلم كثيرًا وأهذى، ولا أستطيع أن أتحكم فى حركات جسدى، فتميل رأسى ناحية الشمال حتى أشعر أننى سأسقط، فأعدلها لتميل ناحية اليمين بشدة، فأبدو كالمهرج، يتحايلون كى أشرب معهم، وحين أوافق أندم

بعدها، وأحس أننى أراجوز القاعدة، حتى أن أحدهم – لا أذكر اسمه – علق:

- اللى ما حشش مع عاطف الخليجى.. يبقى عمره ما حشش.

أبو عصام شخصية روائية، من الصعب جدًا أن تقابله فى الواقع، هو من علمنى الحشيش، ثمّ البرشام والأدوية، ماهر جدًا فى عمله، ومتفانٍ، حمار شغل. تعرفت عليه فى الورشة، هو قارئ جيد، يحب صنع الله إبراهيم وإبراهيم أصلان، يقرأ الجرائد ويتحدث فى السياسية، ويبتكر فى الشغل ويبدع، نادرًا ما تراه يأكل، يعيش على السجائر والبانجو والديمول، حين رأيته أول مرّة فى الورشة، خفت منه، يبدو مُسجل خطر، ولكنه استقبلنى بحفاوة، ورغم فارق السن فقد كان يعاملنى كصديق، كصديق حقيقى، وفى المساء نصعد سويًا إلى حجرته فوق السطح، نسكر وننسطل على أنغام أم كلثوم أو محرم فؤاد، مرّة تجرأت وقرأت له قصيدة فأبدى إعجابه، وأثنى على موهبتى، وحفزنى على أن أبحث عن ملحن أو مطرب وأقرأ عليه قصائدى، فقصصتُ عليه حكايتى مع المطربين فضحك وقال لى:

- من أحمد الأسمر لمنير مرة واحدة... يعنى يا إما تشطح يا إما يتخسف بيك الأرض.

وكنا حين ننزل الحسين لتحصيل الفلوس يعزمنى على أكلة حمَام، يصرف كل مكسبه، ولا يهمه شئ فى تلك الدنيا،

ولكنه لم يحدثنى عن أسرته أبدًا، وأنا لم أحاول أن أسأله، أستمتع بقضاء الوقت معه وكفى.

مرّة تشاجر مع صنايعى، وكان هذا الصنايعى جاره، ويبدو أنه يعرف عنه الكثير...

- بتضربنى يا معرص، يا اللى مراتك بتنام مع طوب الأرض، عاوز تعمل عليا راجل يا خول.

وظننتُ أنها شتائم عادية، كتلك التى يتبادلها المتشاجرين، وانتظرتُ أن يضربه أو حتى يبادله السبّ، غير أنه بكى كطفل صغير، وهى المرّة الأولى والأخيرة التى رأيته يبكى فيها، بعد ذلك عرفت أنه هجر زوجته، وأنها رَفعتْ عليه قضية طلاق، وأنها تمارس الدعارة، وأن ابنه يعمل معها، يسحب لها الزبائن ويدفع عنها البلطجية.

فى البداية كنتُ أعمل مع الأسطى صلاح صبى صنايعى بَرد، وكان يعاملنى أسوء معاملة، ويصر على إهانتى أمام الزبائن والقهوجى وأى صنايعى أو عامل جديد، ويلقبننى بعاطف سبانخ على وزن حسن سبانخ، وجعل منى مرمطونًا لكل الورشة، عند المشاوير البعيدة والمتعبة يرشحنى على الفور..

- ابعتوا سبانخ.

أو.

- سيب اللى فى إيدك وقوم عاوزك.

أو.

- انت بتعمل إيه والنبى؟ أكيد بتعك.. قوم فز وأنا بكلمك.

وأبتلع غضبى وأسكت، أترك ما بيدى، أقضى المشوار وأرجع بأقصى سرعة، فلا أسلم من توبيخه.

- ما بدرى يا بيه! تلاقيك بتلف طول النهار فى الشوارع.

ومرّة طلب منى أن أنزل ببضاعة الحسين، وكانت الطريق مقفولة ومزدحمة، وكانت الشرطة منتشرة فى كل مكان، فقلتُ لنفسى "اليوم، لا بيع ولا شراء" وعدتُ بالبضاعة، حين رأنى وأنا أحمل الكارتونة على كتفى صرخ، وهاج، وسبّ الدين لكل أسرتى، ابتداءً من أسلاف أجدادى وانتهاءً بأولادى الذين لم أنجبهم، وحاول ضربى لولا تدخل الصنايعية، خاصة أبو عصام، الذى دافع عنى وشهد معى ضد صلاح الذى اشتكانى لصاحب الورشة، وكان حسام صاحب الورشة يحب أبو عصام ويثق فيه، ويعده أهم صنايعى فى الورشة، فى الحقيقة كان أبو عصام أهم صنايعى فى الورشة بالفعل، أولاً: هو يعمل ليلاً ونهارًا بلا مقابل تقريبًا، لا يطلب فلوسًا إلا من أجل السجائر والمخدرات.. ثانيًا: هو أمهر صنايعى ومبدع فى عمله؛ وأذكر أنه طور فى المهنة، واقترح مرّة أن ندهن التماثيل بالورنيش والسبرتو بعد استخراجها من الغبوة وتلميعها كما نلمع الأحذية، وجاءت النتيجة مذهلة، وبكل بساطة برقت التماثيل بين

أيدينا، دون مجهود ولا سعال ولا بلغم على الصدر، فقد كنَّا قبل هذا الاكتشاف نستخرج التماثيل من برميل بلاسيتيكى ضخم به مادة كيميائية شديدة الخطورة على الجلد والرئة تُسمى الغبوة، ونترك التماثيل فى الهواء الطلق حتى تجف تمامًا، ثمّ نلمعها بقطعة قماش صوف، فيخرج منها هبوة وهو الغبار الناتج من الغبوة يمزق صدورنا ويصيبنا بالكحة والألم، وفى النهاية لم نكن نحصل على ربع النتيجة التى حصلنا عليها من اكتشاف أبو عصام... وطلب أبو عصام من حسام أن أعمل معه فوافق، وعشت أنا أيام من راحة البال كانت تغيظ الأسطى صلاح وتجعله يسبّ مائة دين، فمن المتعارف عليه فى الورش أن الصبى حين يعمل مع صنايعى لا يحق لأىّ صنايعى آخر أن يطلب منه أى شئ، ونستثنى من هذا طبعًا صاحب الورشة، فهو الوحيد الذى له أحقية تامة فى أن يطلب ما يشاء ممن يشاء، كما أن الصنايعى هو الذى يحاسب الصبى الذى يعمل معه، وهو أغدق علىّ بالفلوس، وجعلنى أمسك قرش بعد عمر طويل من العمل بلا مقابل حقيقى.

ولكنه بعد فترة طلب منى أن أتعلم السنفرة.

- شغلانة سهلة وبسيطة وفلوسها حلوة... وهيبقى زيك زى أتخن صنايعى.. و... أم صلاح.

وتعلمت السنفرة فى وقت قصير، أنقع التماثيل فى برميل ضخم به كمية من الماء والبوطاس وأتركها لمدة

ساعتين أو أكثر، ثم أخرج تمثالاً وأضعه أمامى فى طبق بلاستيكى به كمية من الماء، أقطع من ورقة السنفرة قطعة صغيرة وألفها على إصبعى الأوسط، وأدلك التمثال حتى ينعم تمامًا، وفى ليالى الشتاء، حين تكون البرودة شديدة، أشرب من السبرتو الذى نستخدمه فى تشطيب التماثيل بعد أن أخلطه بالماء فيسرى الدفء فى جسدى.

وفى المساء، أسهر مع أبو عصام، يفتح المطواة ويغلقها بحنكة، ويطعن بها الهواء بخفة ومهارة، فانبهر به، وأطلب منه أن يعلمنى كيفية التعامل مع تلك الأسلحة، يُدخل الحلقة المعدنية الصغيرة فى إصبعى الأوسط، ويضع كل إصبع من أصابعى فى مكان محدد، ويحذرنى من إغواء السلاح:

- السلاح له شهوة، يعورك لو معرفتش تتعامل معاه صح، وممكن تقتل أقرب الناس ليك لو هرجت به، زى الحصان كده بالظبط، لو ما مسكتش اللجام صح، الحصان هيوقعك ويدوس عليك.

ويفتح الدولاب القصير ويستخرج منه مجموعة كبيرة من الأدوية:

- التريمال زى الأفيون مزاجه هادى ويحب اللسع، الحبايا من دول تخليك تركب على المره ما تنزلش غير لما صوتها يجيب آخر الدنيا، ده غير إنه بيخلى الواحد حمار شغل، تفضل طول النهار والليل شغال زى الجن ولا تحس بحاجة أبدًا... البركانيول بقى

حاجة بنت وسخة، دماغه بتقلب بهلاووس وجنان، ده بقى تاخده لما تكون نويت تطلق الدنيا، هيخليك تعيش فى الكوكب الآخر، أما البانجو فكيف القرود والبهايم، بس رخيص ومنتشر، الحشيش عم الكل، دماغ نضيفة ورايقة وكلامك تلاقيه موزون، ولا ترجيع وغمّ زى الخمرة ولا صداع وقرف زى البانجو.

وألح عليه أن أجرب، فيلف سيجارة بانجو ونتناوب عليها، ولكنه يرفض أن أتعاطى أى أدوية:

- الكيميا بنت قحبة.. لو مسكت فيك مش هتسيبك... وانت ابن ناس وأمك غلبانة.

وأتوقع أن يسألنى عن أبى فلا يسأل، ربمّا يخمن أنه مات، أو ربمّا يعرف أن أبى رحل وتركنا نواجه الحياة كما فعل هو مع أسرته، أبى أيضًا ترك البيت بلا سبب واضح، استيقظ مبكرًا واستحمّ ثمّ ارتدى الجلباب الأبيض الحرير والغُترة البيضاء والعقال وخرج، انتظرناه طوال النهار، وطوال الليل، ومر يوم، ومر آخر، لا خبر، سألنا كل الأقارب، وقدمنا بلاغًا فى قسم إمبابة، وفتشنا فى الحميات والمركزى ومستشفى الساحل والقصر العينى، ووزعنا صورته فى كل مكان، حتى السفارة الكويتية سألنا فيها بلا نتيجة، أنا وشيماء اعتبرناه توفى، أما أمى فظلت تنتظره أمام الباب

حتى تُغلق المحلات وتُنطفئ الأنوار فنسحبها للداخل، كانت تردد:

- طب اللى بيموت بنبقى عارفين راح فين.. لكن ده اختفى زى ما تكون الأرض انشقت وبلعته!

أو.

- ممكن يكون سافر يا ولاد؟

أو.

- يكون راح فين ده؟ أحسن يكون حوش قرشين وأتجوز، وكل اللى عمله ده عشان يضحك علينا وما نطلبش منه فلوس؟

أو.

- أكيد بتوع أمن الدولة خدوه، آه.. ما هما بيعملوا كده.. اللى بياخدوه ما حدش يعرف له طريق جرة.

أو.

- أحسن يكون جماعة بلطجية افتكروه كويتى بحق وحقيقى فسرقوه وقتلوه ورموه فى حتة.

ثمّ تفكر.

- سرقوه إيه بس؟ هو كان معاه نكلة!

أمى ضيّعت عمرها فى التساؤلات، فى وضع الاحتمالات وتفسير سبب اختفاء أبى حتى أصابتها الهلاووس، ولكنها مع الوقت بدأت تستسلم للأمر الواقع، وتذكر له كل شر، وتحكى حكايتها معه بأشكال مختلفة وعديدة فتقبح صورته

وتلعن الأيام التى عاشتها معه، وأحيانًا أخرى تقعد معنا ونحن نتفرج على التليفزيون وفى غاية الانبساط ثمّ تبكى فجأة وبلا مبرر وتمدح فى أبى...

- ضلك كان مكفينى... كفاية حسك فى الشقة... كفاية ضحكتك الحلوة.

وأبى لم يكن له ظل؛ لأنه لم يبرح مكانه على الكنبة أبدًا، وحسه كان يستخدمه فى سبّها وسبّنا وسبّ المصريين جميعًا، وضحكته اختفت منذ عاد من الكويت آخر مرّة، غير أننا نلتف حولها ونربت على ظهرها وتحتضنها شيماء وتبكى على بكاء أمى.

الدخان يملأ الكوب، لا أعرف لمَ يقولون أن دخان الحشيش أزرق؟ الدخان ناصع البياض بشكل ملفت! ألتقط الكوب وأزيح الأجندة من فوقه، أستنشق الدخان بمنخرىّ وأكتمّ، يضرب الدخان رأسى فى لحظاتها فأحس بأنى هادئ وسعيد ومنتشى.

-5-

رغم أنف الرجل الأصلع أقعد متجاهلاً نظرة الحقد والغيظ المصوبة نحوى؛ الحصول على مقعد فارغ فى المترو عمل شاق ومتعب، أعبث فى الموبايل بيدى اليمنى ويدى اليسرى متشبثة بالماسورة الحديدية، لا أعلم متى رَكبتْ هى المترو؟ لم أشعر بها إنما شعرت بلحم طرى دافئ يحك بيدى اليسرى، أنظر فإذا بفتاة تقف إلى جوار الباب، لا أرى وجهها ولكن ظهرها يبرز جمالاً خاصة الردف الشهى الذى يحتكك بى، أحس بلذة تسرى فى بدنى، وأحاول جاهدًا أن أسحب يدى غير أننى لا أستطيع، أنكب على الموبايل تاركًا لها يدى تعبث بها كيفما يحلو لها وهى تتحدث إلى طفلة فى حوالى السابعة، لا أتابع حديثهما، فقط أهتم لأمرى، وأقول لنفسى "لقمة ساخنة أنتِ فى بلد الجوع الجنسى، ولكن هل تشعر بيدى، هل هى متعمدة؟"... ويأتى الرد حين تلصق مؤخرتها بأصابعى غير عابئة بشأنى، تقف نبضات قلبى، وتصل حرارة جسدى لدرجة الغليان... وفى محطة غمرة تنزل الطفلة وتبقى الفتاة على حالها، أتمنى أن يسير القطار بلا نهاية، بلا توقف... تلتفت فجأة نحوى وتسألنى:

- لو سمحت، عاوزة أروح سوق الخميس.

أنظر إليها، هى فتاة عشرينية، بيضاء، وجميلة.

- هتنزلى محطة حلمية الزيتون ومن هناك هتركبى عربية.

تمط شفتها السفلى وتهز رأسها متفهمة وتَسكتْ، فأكمل:

- على العموم أنا رايح هناك.. ممكن أوصلك.

- متشكرة، أنا مش عاوزة أتعبك معايا.

- لا.. لا أبدًا.. ده حتى طريقى.

ليس طريقى، كنت ذاهبًا لعين شمس ولكن من أجلك سيكون طريقى، وتكتفى هى بابتسامة خفيفة ثمّ تسكت، وأعود أنا إلى موبايلى محاولاً تجاوز خجلى، وتمر المحطات متتالية حتى تجئ محطتنا فننزل... فى البداية يمنعنى الحياء من المشى بجوارها، فأتقدم عنها ببضع خطوات أو أتلكأ فأتركها تسبقنى ببضع خطوات، ويقتحمنى هاجس، هاجس أم أمنية؟ "ماذا لو فُنيت البشرية إلا هى وأنا، آدم وحواء سنكون، ما أمتع الحياة التى حصدها آدم! وقتها كنتُ سأجردها من ملابسها وأعبث بها مثلما كانت تعبث بى منذ قليل، عذريتى التى لازمتنى عمرى كله يمكننى توديعها حينذاك وربما عذريتها أيضًا إذا كانت عذراء".

تكاد أن تضيع منى بسبب الزحام فأستجمع شجاعتى وأمشى بجوارها، وفى أثناء صعودنا السلالم تقف قليلاً وتنحنى وهى تتأوه:

- آه رجلى وجعتنى من الوقفة فى المترو.

تقبض على كفى وكأنها تستعين بى، أصابعها رقيقة وناعمة وطرية كقطعة قطن، ورغم الرجفة القوية التى تنتابنى إلا أننى أتغاضى عنها وأترك لها يدى للمرة الثانية، تنظر نحوى وتقول بمرح طفولى:

- انت بتترعش؟ مكسوفة يا كميلة؟

تقولها كمن يدلل طفلاً صغيرًا، أنظر إليها بضيق وأسحب يدى بعنف، غير أنها تقبض عليها بقوة وتقول ضاحكة:

- انت زعلت؟

لا أرد.

- أنا بهرج معاك، لو زعلان أنا هاصالحك.

مشكلة الحياء تؤرقنى وتحول بينى وبين صيدى الجميل، جرأتها الزائدة وحديثها السافر يدهشانى ويحرجانى... بعد عناء طويل أسألها:

- مين البنت اللى كانت معاكى فى المترو؟

- دى أختى عزة.

- أختك؟

- أيوه أختى.

- طيب وهى نزلت فى غمرة ليه؟

- أصل إحنا ساكنين هناك، كنا عند خالتى فى دار السلام وهى روحت وأنا راحة لواحدة صاحبتى.. هى العربيات لسه بعيدة؟

فأشير واصفًا الطريق.

- تانى شارع يمين..آه صحيح هو انتى اسمك إيه؟
- تفتكر كده اسمى إيه؟

أفكر قليلاً.

- مش عارف.
- فكر كده.
- مـ.. مش عارف والله.. أصلى ماليش فى أسامى الحريم.

بخبث واضح تسأل:

- يعنى عاوز تفهمنى إنك مش مرتبط.
- مرتبط؟
- آه.. يعنى بتحب.. مصاحب.. حاجة زى كده يعنى.

أنا لا أجيد التعامل معهن، وهن يرفضن الارتباط بى... ولكنى أرد:

- لسه مالقيتش الإنسانة المناسبة.

"لسه مالقيتش الإنسانة المناسبة" أردد المقولة عدة مرات، إجابة خائبة، كأنى أعيش فى فيلم عربى قديم، من الأفضل أن أعترف لها بأننى لا أجيد سوى دور السنيد، دور المهرج الذى يجلب البهجة والضحك للأميرات فينال عطفهن وإسعادهن، ولا شئ أكثر من ذلك، أما الحب ولغة القلوب فهى من حق الأبطال فقط، غير أننى أكتفى بتلك الإجابة ولا أتمادى فى الشرح والتوضيح، ونمشى حتى موقف المواصلات، فنركب ميكروباصًا، تركب هى أولاً وتختار

المقعد الأخير لتجلس عليه، وأحتار أنا لأمرها فقد كان الميكروباص خاليًا تمامًا من الركاب، لكننى لا أعارضها وأقعد إلى جوارها، وتجئ الفاجعة حين ترفع جيبتها فتنكشف ساقاها ووركاها، هى بيضاء وجميلة وشهية، أبحث عن ريقى فلا أجده، وتتسارع نبضات قلبى حد الجنون. تميل نحوى وتهمس:

- حط إيدك.

أضع يدى وأتحسس الفخذ الناعم الأملس واللذة تغمرنى فتثقل يدى وترتجف، فتعود هى هامسة من جديد:

- جوا شوية.

فأقول فى نفسى "الليلة عيد".

وتداعب أصابعى وركها وتغوص نحو غايتها الكبرى، لكنها تنزع عنى أفكارى وأحلامى وعملى بعنف حين تجذب الجيبة لأسفل فتستر نفسها وهى تنظر نحوى وتنظر نحو باب الميكروباص بإشارة أعرف مغزاها، أحدهم يصعد الميكروباص وهو ينظر لنا بارتياب، ويترك السيارة الخالية ليجلس إلى جوارنا، هنا فقط أدركتُ أن المهمة انتهت بالفشل.

كل المحاولات تنتهى دائمًا بالفشل؛ قديمًا كنا نلعب صبيانًا وبناتً فى حوش جدتى، نكوّن فريقين ونتعارك، فريق البنات تحت قيادة هند التى أطلقنا عليها لقب هند دكر لأنها تتحدث بصوت خشن وعالٍ مثل الرجال، وتدفعنا بيديها

الغليظتين، ولا تخاف من أحد سوى الولد أحمد الذى كان يقود فريقنا، وكنت أنا أنهمك مع البنات الأخريات فى الضرب والمدافعة عن نفسى فى حين كان أحمد مشغولاً بالبنت هند، يطرحها أرضًا ويركب عليها، ثمّ يحرك جذعه بسرعة، فنضحك ونعتقد أننا انتصارنا على فريق البنات، ولكن أكثر ما كان يغيظنى أن ضحكاتها كانت تعلو وتغطى على ضحكنا جميعًا، فتختلط علىَّ الأمور فلا أعرف من الفائز ومن الخاسر! ومرّة ونحن نلعب تحَسستْ عضوى فشعرت بلذة خفيفة ومبهجة تسرى فى ظهرى، وشعرتُ به يتحرك ببطء كأفعى تحبو من مرقدها، فقَبضتْ على عضوى بعنف فدب ألم رهيب بين فخذىّ وصرختُ ولم تتركنى حتى هتفتُ بأعلى صوتى:

- أنا مرَه... أنا مرَه.

وصعقنى الخجل فامتنعت عن اللعب معهن، بعدها بأيام، فوجئت بها توقظينى من النوم، فاندهشتُ، وتساءلت كيف دخلت إلى هنا؟

- قلت لستك عاوزة عاطف.. قالت لى خشى صحيه.

وصحيت، ونزلت معها وهى تقسم طول الطريق بأنها "محضرة مفاجأة" ومشينا طويلاً، وعبرنا أكثر من شارع حتى ابتعدنا عن المنطقة تمامًا، فوجدت نفسى فى أرض فضاء ليس بها سوى شريط خط لسكك حديدية ومحلات ودكاكين صغيرة جدًا مغلقة، قالت:

- دى الصوامع.. بتاعت القمح.. الحتة دى اسمها الترسانة.

كنت أعرف القمح ولكنى لم أكن أعرف ما هى الصوامع أو ما هى الترسانة، المهم، فى حطام سيارة أدخلتنى، السيارة كانت عبارة عن هيكل، عفشة قديمة جدًا ومتآكلة، وعجلة قيادة – طارة - وبلا عجلات، ركبت هى فى الكنبة الخلفية، وطلبت منى أن أركب إلى جوارها، فخفتُ، فضَحكتْ، فغلبتُ خوفى وركبتُ، جذبتنى نحوها وقبّلتنى، ثمّ قبّلتنى، ثمّ قبّلتنى، وقبّلتنى، وأنا عينى لا تفلت عجلة القيادة، فتوقفتْ وصرختْ:

- انت بتبص على إيه؟

وقلتُ لها:

- استنى.

وحشرتُ جسدى بين المقعدين الأماميين، وانزلقتُ، ثم جلستُ على كرسى القيادة ورحتُ أتقمص شخصية خالى محمد وهو يقود التاكسى الذى كان يعمل عليه، صَرختْ:

- انت بتعمل إيه؟

فقلت بمنتهى الهدوء:

- بسوق.

كانت تلبس جيبة قصيرة جدًا فَرفعتْها وقالت:

- بُص.

نظرتُ خلفى فرأيتها تسلت الكيلوت الأبيض الصغير المطبوع عليه وردة حمراء كبيرة، لم أجد أيّة شئ غريب!

هذا الكيلوت أختى كانت تملك منه العشرات، ورفعتْ ساقيها كاشفة عن فرج أحمر أملس وصغير، أختى أيضًا لها مثل هذا الفرج وكانت تستحم معى وقد رأيته أكثر من مرّة! فما الجديد؟ كما أننا فى بيت جدتى كانت لهن عادة غريبة جدًا حيث تتجمع كل نساء البيت من الدور الأرضى حتى الأخير فى شقة جدتى ويقمن بعمل الحلاوة بشكل جماعى! وكنتُ أحضر ذلك الطقس الذى يعقد كل شهر تقريبًا فأجد نفسى بلا وعى منى أقارن بين أفخاذهن ومؤخراتهن وأعضائهن! وأندهش من تلك الطريقة التى يقتلعن بها شعر العانة والإبط، وكنت أُعامل كطفل فكلهن شاركن فى تربيتى، وكل واحدة تعتبر نفسها أمى فلا تخجل منى! وكنت الطفل الوحيد الذى يحضر هذا اليوم السعيد! المهم، نعود إلى هند التى أصابها الإحباط من تجاهلى الشديد لها، حتى أنها راحت تداعب عضوها وتتأوه كأنثى عاهرة ومحترفة! ولا أعلم حتى الآن كيف لطفلة فى مثل هذا العمر أن تعرف تلك الأشياء! وهو أمر عجيب فعلاً! ولكن الأمر المؤسف حقًا أنها تركت الشارع قبل أن أبلغ الحلم، وسكنت فى منطقة أخرى. حين بدأت حالة الهياج تعذبنى وتعصف بى وتوشك على جرّى إلى مصائب كبرى، وأذكر من تلك المصائب لولى، ولولى هذه ليست طفلة كهند ولا امرأة كأم عادل صديقى، كانت كلبة، نعم كلبة وهائجة لا ترتوى ولا تهدأ، وكنت أراها وأنا ذاهب إلى المدرسة أو عائد منها وهى تستدرج أكثر من كلب

لمضاجعتها، تجلبهم من أماكن بعيدة، فيتناوبون عليها، ففكرت فى أن أستدرجها أنا! وكنت على يقين بأنها لن تمانع، وقد ترحب بهذه التجربة كنوع من التغيير، وربمّا تفكر أيضًا فى تحسين سلالتها! ولكنى تخيلت نفسى إذ طب علينا أحد، بالطبع ستكون فضحية، خاصة وأن الكلاب خصوصًا إذا خافت أثناء الجنس التَصقتْ، فكيف سيكون حالى لو التصقتُ بها وجَرتْ بى فى الشوارع والعيال ترجمنا بالطوب والماء المغلى؟ وكان مجرد تخيل مثل هذا الموقف كفيل بإبعاد تلك الفكرة المجنونة من رأسى، وفى حالات ممارسة العادة أكتفى بإحضار صورة هند وهى تنزع الكيلوت وتعبث بجسدها، حتى صرح لى أحمد أنه كان – ونحن أطفال – يضاجع هند وأنها كانت ممتعة وشبقة وهى صفات بعيدة تمامًا عن طفلة! وأنها تعلمت ذلك من أمها التى تمارس الجنس يوميًا ثمّ من أختها التى كانت تعاشر خطيبها أمام الطفلة! ثمّ قال لى إنه رآها وهى عائدة من المدرسة، وأنها أصبحت أنثى حقيقية، وأن خرّاط البنات قد تفنن فيها فجعل منها تحفة فنية، وأنه يعرف بيتها، ويقابل والدتها كثيرًا وقد طَلبتْ أكثر من مرّة أن يأتى ليذاكر مع هند لأنها "ميح"، كنا وقتها فى الإعدادية، وكان معروف عنى بأننى شاطر، فاقترحتُ عليه أن نذهب إليها ونحاول إقناعها، وأنها ستكون سعيدة ومبسوطة، وبالفعل ذهبنا، وعند مدخل البيت اجتاحنى خوف غامض، ورفض الصعود، وقلت له:

- اطلع انت شوف الجو وبعد كده اندهلى.

وانتظرته، وظننتُ أنه سيتأخر، ولكنه لم يغب أكثر من دقائق، وأقبلتُ عليه فرأيت وجهه أحمر بلون الدم ومرتبك وكأنه سيوشك على البكاء! فسألته عما حصل، وانتظرتُ الإجابة، غير أنه قال بسرعة:

- امشى.. امشى.

فأحسستُ أن أحدًا ما يطاردنا، ومشينا بسرعة حتى ابتعدنا عن بيتها بقدر كافٍ، وحين شعر بالأمان قال:

- شوفت اللى حصل؟.

فلم أقل له "انت حمار؟ طبعًا لأ.. هو أنا كنت معاك؟".

فقط سكتتُ وتركته يأخذ نفسه ثمّ يحكى:

- أنا خبطت على الباب.. فتحت أمها.. سلمت عليها ودخلتنى.. شوية كده وقولت لها أُمال فين هند؟ قالت لى خش سلم عليها.. فى الأول اتكسفت بعد كده دخلت.. وهند كانت قاعدة بجلبية على اللحم جسمها كله باين... وشى أحمر وحسيت إنى بغلى من جوا...وهى سلمت عليا كأن مافيش حاجة.. ولقتنى بقول لها.

وسكتَ، وابتع ريقه، ثمّ أكمل:

- أنا معايا عاطف تحت وكنا عاوزين ننام معاكى.

فهتفتُ بسرعة:

- وحصل إيه؟

- زعقت وصرخت وقالت لى يا ولاد الوسخة أنتم فاكرنى شرموطة يا ولاد القحبة... وكانت هتنادى على أمها... قاعد أقولها أنا بهزر.. معلش.. أنا آسف.. حقك عليا.. لغاية لما هديت وقالت لى.. طب غور يا عرص من أدامى.. وغورت ونزلت جرى.

وها هى محاولة أخرى تجلس إلى جوارى، فلا أعرف كيف أتصرف معها! هى تقود الحديث وتقودنى كأنى دُمية..، فإلى أين ستذهب بى؟ وتنطلق السيارة بعدما تمتلئ بالركاب، ونحن نتبادل همسًا حديثًا تقشعر له الأبدان، هى المتحدثة وأنا المتلقى، وأتعلم منها الكثير؛ فهى امرأة مطلقة تزوجت لمدة شهرين فقط ولكنها خبيرة فى أمور الجنس، ونصل فأحس بأن جسدى قد احترق من الشهوة، أطلب منها أن نتجه إلى أى مكان نُفرغ فيه حملنا ولكنها ترفض؛ فقد تأخر الوقت. أسألها عن رقم هاتفها تبتسم وتقول بدلال:

- لا يا حبيبى، أنا أخد رقمك واتصل بيك، لكن انت تاخد رقمى... لأ.

أعطيها رقمى وأسألها:

- هتتصلى بيا إمتى؟

فتجيب وهى تنقر بسبابتها على جبينها:

- على حسب مزاجى.

وتمشى متمايلة، فأحس بأننى ملك مهزوم سُلب عرشه.

-6-

أختلس اللحظة المناسبة حتى أتمكن من تحليّة الشاى بحبة ديمول أخرى، وأقلب، أقلب الشاى ببطء وخمول... صوت منير يأتى من الراديو الضخم "عطشان مش لاقى الميه... حيران مش لاقى مراسيا"، أنا أيضًا عطشان وحيران ولا أجد مَرسى لى، من أسابيع الشغل توقف تمامًا، كنتُ الفترة الفائتة أنزل من البيت وأذهب إلى الورشة لأجد الحال واقف كما هو، فأجلس على القهوة، أدخن الشيشة وأشرب الشاى وأعود إلى البيت يا مولانا كما خلقتنى، أو أتسكع مع أبو عصام ونتكلم عن أحوال البلد وما حصل فى السيدة عائشة وشرم الشيخ ثمّ العملية التى حدثت مؤخرًا فى الحسين، كنت أعلق على تلك الأحداث بأنها "لا منها ولا

كفاية شرّها" وأن الحال إذا أستمر هكذا سيضطر الأسطى حسام أن يغلق الورشة، وكان أبو عصام له رأيًا آخر، فهو يرى أن هناك بعض المناطق السياحية لم تتأثر بتلك الحوادث وأننا فى فصل الشتاء والخير كله فى الغردقة؛ لها زبون خاص، وأن شرم الشيخ أصبحت مصيف للأثرياء المصريين والعرب وهؤلاء لا يأتى منهم قرش؛ ليسوا زبائن حقيقيين، وآخر شئ ممكن أن يفكروا فيه هو التماثيل الفرعونية، ليسوا سائحين بالمعنى الذى نفهمه؛ هم باحثوا متعة فقط وليس لديهم أى اهتمامات بالحضارة، أما زبائن الغردقة فهم شئ آخر، ولكن الأسطى حسام كسول ولا يحب أن يبحث عن زبائن جدد، ويرفض أن يفتح شغل جديد، ويكتفى فقط بالزبائن القديمة، وإنه – أبو عصام – قد عرض على الأسطى حسام أن يسافرا معًا إلى الغردقة لجس النبض، فماذا فعل الأسطى حسام؟ قضى الوقت بين الشواطئ الرملية والسهر فى الملاهى الليلية، فشرب وسكر ونام مع الراقصات والروسيات وبعثر الفلوس وعاد خائبًا، حتى فلوسنا لم نأخذها بعد تلك السفرية التى جعلته على الحديدة، والأسطى حسام فى الأساس يعشق النساء ولا يكف عن البحث عنهن، وهن يملن له على الفور، حتى لو كانت المرأة شريفة وعفيفة ومحترمة، وحتى لو كانت تحب زوجها، وكان له سحر غريب وقدرة فائقة على جذب الحديث ومعرفة ما يشغل المرأة، ليست المرأة بشكل عام، ولكنى أقصد المرأة التى

تقف أمامه، فلو كانت - مثلاً – تحب الطبخ تجده أصبح فى غمضة عين طباخًا ماهرًا يتكلم عن طواجن البامية والمِسَقعة والأرز المعمر، ولو كانت تعشق الغناء أصبح هو ملحنًا وشاعرًا ومطربًا ومكتشف مواهب، وهكذا... المهم أنه لا يتركها سوى على الفراش، ويُذاع عنه أيضًا أنه "مِطرف" أى صاحب عضو ضخم، وتشبهه النساء اللاتى لا تعرفه بأحمد زكى والنساء اللاتى عاشرهن برشدى أباظة، وهو يشبه أحمد زكى فعلاً، لون البشرة والطول وطريقته فى الكلام، أما تشبيههن له برشدى أباظة فأعتقد أنها كناية عن فحولته، وإن كنت لا أعرف لماذا ارتبطت الفحولة عند المصريات برشدى أباظة!

وقال لى أبو عصام أيضًا أن الديون بدأت تزداد على الورشة، وأن الصنايعية ينسحبون واحدًا تلو الآخر، ثمّ أكد لى أن الأسطى صلاح فى طريقه لفتح ورشة وأنه السبب الرئيسى والأول فى تشجيع الصنايعية على هجر الشغل.

- ما انت عارفه.. راجل ابن كلب رَمه... طول عمره بيموت على القرش وما عندوش أصل.

ولكنى لم أعلق، فأنا فى النهاية لن أعمل عند الأسطى صلاح لأنه بالتأكيد سيرفض أن أشتغل فى ورشته، وربمّا لن يرفض، وربمّا يوافق أن أعمل لديه فيذلنى ويتلذذ بالسخرية منى وقتها لن أستطيع أن أقول له "تلت التلاتة كام" وربمّا أيضًا يتغير فهو اليوم صاحب ورشة وليس صنايعيًا عاديًا فلا

حاجة له لمضايقة أحد... والشغل عند الأسطى حسام قليل ومعدوم ولا يؤكّل عيش، ومصاريف البيت فى تضخم مستمر؛ أمى لم تعد قادرة على الخياطة مثل الأول، كما أن سوق الملابس الجاهزة دمر هذه المهنة من الأساس، وأختى فى المدرسة الثانوية وشغلها فى محلات وسط البلد – فى فترات الإجازة السنوية ونصف السنوية – لا يغنى ولا يسمن، ويضيع راتبها كله على المواصلات والملابس، وربمّا تفاجئنى بعد الدراسة بعريس.. فماذا سأفعل وقتها؟ وربمّا تحصل على مجموع يؤهلها للتعليم العالى، أربع سنوات أو أقل من المصاريف والكتب والملابس، وربمّا أيضًا تكتفى بالتعليم المتوسط فتساعدنى على المعيشة... أحس أن الحمل علىَّ ثقيل فيركبنى الهم ولا أعرف ماذا أفعل؟ يغنى منير "دور على الناس... فى قلوب الناس"

فأفكر فى أبى، ويبدو لى مجيئه الآن حلاً، نجدة، أملاً خائبًا، على الرغم من أنى أدرك جيدًا أنه إذا جاء لن يفيد فى شئ، وربمّا سأتولى إعالته هو أيضًا، ومع ذلك أتخيل أنه ربمّا يأتى محملاً بالمال من دول الخليج، وأفكر... ربمّا سافر مرّة أخرى، ربمّا ينجح تلك المرّة، ربمّا يعود شخصًا آخر، يعود أبى كما كان سابقًا، ندهن الحوائط والبيوت ونرضى بالقليل، ربمّا، وربمّا، وربمّا... وأنا على يقين بأنه لن يحصل شئ، وأننى الوحيد المطلوب منه إعالة تلك الأسرة، وأن السماء لا تمطر حلولاً ولا فلوسًا ولا عملاً.

حين دخلتُ تلك القهوة التى أقعد عليها الآن لم تكن لدىّ أى نية للقعود، كنتُ فقط محصورًا وأبحث عن مرحاض أفرغ فيه مثانتى، قلتُ للقهوجى وأنا أتلوى:

- مافيش حمّام هنا؟

لم يهتم بالرد علىّ، حتى أنه لم يرفع رأسه عن الشيشة التى كان يدلق منها المياه، فقط أشار بيده الحرة أن "لا" وواصل عمله، كان المنطقى أن أخرج بسرعة وأبحث عن قهوة أخرى، عن مكان معتم، عن سيارة مصفوفة أتبول جوارها، ولكنى جلست على القهوة، جلست وكأننى انتهيت من تلك المشكلة، وكأن المشكلات الكبرى لا تسمح بمشكلات أخرى كتلك، وطلبت المشاريب أيضًا! شاى ثقيل سكر خفيف وحجرين قص، وبعد أن وضع الصينية أمامى، وتأكد من أننى زبون محترم ولستُ عابر سبيل، مال نحو أذنى بشدة كأنه سيخبرنى بسر وهمس:

- انت كنت عاوز حمّام وللا مبولة؟

- مبولة.

- طب قوم معايا.

وقمتُ فعلاً، ومشيتُ خلفه حتى وقف أمام باب خشبى مُتهالك علقتْ عليه ورقة كُتب فيها بخط سييء "مخزن يا حمار"، واستخرج من جيبه أكرة معدنية ودسها فى فجوة صغيرة بالباب، ودخلتُ، وكان المرحاض ذو رائحة نفاذة ومقززة، حتى أنى أحسستُ أن طعم الخراء فى فمى، ولكنى

فعلتها، واستمتعتُ جدًا حين انتهيت وشعرت بالراحة والخفة، ولمّا خرجتُ كان هو فى انتظارى، سعيدًا ومرتبكًا كأننا متواطئين فى جريمة، وكان يلتفت يمينًا وشمالاً، ربمّا خائفًا من عابر سبيل يطلب منه دخول الحمام دون مشاريب! ربمّا خائفًا من يد تهوى على قفاه ويصيح صاحبها "أُمال بتقول ليه ما فيش حمام؟". ربمّا تكون هناك أوامر مشددة من قبل أمن الدولة بعدم دخول عامة الشعب المراحيض! ربمّا يكون صاحب القهوة هو صاحب هذا القرار التعسفى! ربمّا وربمّا أيضًا؛ كل الاحتمالات ممكنة!

-7-

تقـوم متضـايقة، أو متصـنعة الضـيق، أمسـك معصـمها وأجذبها نحوى بعنف، فترتمى عليّ، ثقيلة هى، وبدينـة جدًا، رغم الألـم أضـحك وتضـحك وتـتملص مـن حضـنى، وتجـرى ناحية الباب، أقوم وألحق بها، أحاصرها عند ركن الحجرة، أستخرج المطواة من جانبى...

- انت هتعمل إيه؟

برعب تسأل، أقترب منها وأنا أشيح بالمطواة فى الهواء، وأطعن بهـا أعداء وهميين، وأتفادى ضربات لا وجود لـها. أمشـى نحوهـا بـبطء حتـى ألتصـق بهـا تمامًـا، أشـم رائحـة عَرقها، أنفاسـها الملتهبـة تلفح وجهى، رائحـة أنفاسـها لـها مذاق خاص، نكهة لا تتغير أبدًا، نكهة بطعم الشهوة الدائمة.

سمارة انبهر حين قابلته أول مرّة، كنت يائسًا ومهزومًا ومحبطًا، فتحتُ لـه المطواة قبل أن أستخرجها من جيبى، فتحتها وأغلقتها، وفتحتها وأغلقتها، فاندهش من سرعتى وسألنى:

- انت مُسجل ياد؟

كذبتُ:

- جرايم نفس وحياتك.

وحكيت له أساطير عن نفسى، ومعارك لم تدر سوى فى خيالى، صدّقنى، وترك لى رأسه أغذيها بما أشاء، وأشاع الحكايات فى السوق كله! بل وزاد عليها أيضًا! ثمّ طلب منى أن أعمل معه، أن أكون ذراعه الأيمن: أُحصل من الباعة ثمن الأرضية وأحاسبه آخر النهار.

وردة أيضًا تخاف منى، من مطواتى التى أمررها على عنقها وجبهتها، وأمزق بها – فجأة وبمهارة – جلبابها فينشق إلى نصفين شبه متساويين، فيتدلى الصدر الضخم، وتظهر حلمتيها السوداويين، وبطنها المترهل، ولبسها الأزرق، تصرخ:

- قطعت الجلابية يا ناصح.. أرَوح إزاى دلوقت؟

أكتم ضحكة، فتلفت منى، أهز رأسى.

- مش عارف...

ثمّ أقترح عليها.

- البسى حاجة من عندى.

- يا سلاااام! ولما أروح لأمى بهدومك تقول إيه؟

تخلع جلبابها المقطوع وتقعد على السرير سعيدة ومبسوطة بعريها، ولكنها تصر على عدم خلع الإيشارب؛ تخجل من الحرق الذى يغطى أذنها اليسرى وجزء من رقبتها ويترك بقاياه تحت ذقنها، هذه هى عاهتها الحقيقية، هذا ما يتقزز منه الرجال، هذا ما تحاول دائمًا إخفاؤه بالإيشاربات الرخيصة.

المرّة الأولى التى رأيتها فيها كانت تساوم سمسم على بنطلون، كان يقول لها:

- بعشرين.

وهى تصر:

- هاخده بخمستاشر.. لو وافقت هاخد اتنين.

وكنتُ أقول لنفسى وقتها "أنا بيتنصب عليا وش".

سمسم ابن منطقتى، كنت أراه وهو يمشى فى الشوارع بجسده الطويل ورأسه الصلعاء تمامًا وأناقته وثقته بنفسه فأُعجب به... لا أحد فى المنطقة يجهله، لا أحد لا يتمنى صداقته، ومعرفته، واكتشافه، فهو كالسر الغامض، له هالة غريبة تحيطه أينما كان، ليست كهالة الملائكة أو الشياطين، هالة تخصه وحده، تجذب الناس إليه، فيبدو كاللغز الذى يستعصى حله، وأنا جاءتنى الفرصة على طبق من ذهب، لمّا رأيته فى السوق لم أصدق عينى، كان بكامل أناقته كنجم سينمائى قادم من هوليوود، كان قاعدًا على كرسى خشبى، ويقرأ كتابًا أجنبيًا فبدا غريبًا وشاذًا على جو السوق... لم أتمالك نفسى من الدهشة، مشيتُ إليه وتسمرتُ أمام فرشته، كنتُ وقتها أفرش بالبنطلونات والشورتات التى تحمل علامات مقلدة لماركات مشهورة، وهى سلعة منتشرة وعادية ورائجة فى سوق الجمعة، ولكن سلعته هو كانت مختلفة وعجيبة مثله؛ لوحة مرسوم فيها شاب قوى ومفتول العضلات يرقد على سرير ويبدو أنه مريض أو أنه يحتضر، لوحة أخرى

لشيطان ينظر إلى السماء بتضرع وكأنه يطلب المغفرة، سنبلة قمح – سنبلة قمح حقيقية ربمّا يكون التقطتها من المقابر ووجد فيها ما يستحق العرض – ساعة يد كلاسيكية قديمة، وأحجار صغيرة جدًا وملونة كتلك التى نركلها فى الشارع ولا نهتم بها.

طريقة عرضه للبضاعة كانت مختلفة أيضًا؛ فرش الأقفاص بقطعة قماش زرقاء رُسم عليها بوب مارلى بقلم أبيض، ومئات من الصور الصغيرة جدًا لفيروز ومنير ومحمد فوزى ومطربين لا أعرف أسماءهم.

ظننتُ أنه مختل، وأن ما يحيط نفسه به وهم، وقلت لنفسى "مين الأهبل اللى يشترى حاجات زى دى؟".

وكنتُ أنا هذا الأهبل... عرفته على نفسى، وقلت له إننى "ابن منطقته" فرحب بى وأجلسنى إلى جواره على حجر ضخم، وطلب شايًا من أم وردة... وجاء شاب، سلم عليه بالاسم وتفحص اللوحات، ويبدو أن لوحة الشيطان أعجبته فقال:

- دى جديدة؟

ورد سمسم:

- آه.

فأكمل الشاب:

- عبقرية.

وتفحصها مرة أخرى كأنه يعيد النظر فيها.

- هاخدها.. بكام؟
- 80 جنيه.
- يا عم اكرمنى.. هو أنا زبون؟

بهدوء شديد قام سمسم من على الكرسى وسحب اللوحة من الشاب!

- مش هبيعها.
- فى إيه يا سمسم؟ الكلام أخد وعطا يا فنان.

بعد ذلك عرفت أن سمسم اسمه الحقيقى معتصم. وضع اللوحة مكانها على الفرش ولم يجب، فقال الشاب:

- خلاص.. هاخدها.

وعدَّ له الفلوس وانصرف دون أن يلقى بالسلام.

كان السوق مزدحمًا، والزبائن يتلكئون أمام فَرشة سمسم ويستعجبون، أحدهم أمسك بحجر صغير وقال باستغراب:

- إيه ده؟ دى زلطة!

فخطف سمسم الحجر ونهره بعنف:

- بقى دى زلطة؟

ومَلس عليه وطبطب كأنه شئ ثمين فعلاً...

- ما تبقاش تمد إيدك على حاجة ما تعرفش قيمتها.

وارتبك الزبون وفكر.

- قيمتها إيه؟ دى زلطة! تلاقيك لقيتها فى الشارع.

بدا الزبون شديد الجهل من طريقة كلامه، فاستغل سمسم سذاجة الزبون وحكى له حكايات عن تلك الزلطة وكيف

تُستخدم فى جلب الرزق وحفظ المال والنفس، وكيفية التطهر بها، وانفجرتُ ضاحكًا حين ارتجل له حديثًا "عن أبى المهدى بن البصير قال "مَن ملك الحجر الصغير الكريم ذو اللون المبهر الجميل نال ما تمنى، وكان له مقدار جبل أُحد من الحسنات، ومن السيئات مقدار ما بقى فى إناءٍ فارغ، وعاش صحيحًا ومتعافيًا فى أهله وماله وبدنه، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر".

وشرح له الحديث وفسره أيضًا، وأخبره عن مدى الثواب الذى يحصل عليه مُشترى ذلك الحجر الكريم القادم من السعودية، فاقتنع الزبون وتوسل إليه حتى يبيعه له بـ(15 جنيه) بدلاً من (20 جنيهًا)، ودعا الله أن يجعل باقى المبلغ فى ميزان حسنات سمسم فوافق سمسم وهو يردد أن "البيعة خسرانة.. وما جبتش حق الوقفة".

وأنه باع الحجر لوجه الله تعالى.

أمى أيضًا كانت تدعى دائمًا أن "البيعة خسرانة"، كنتُ أسافر أنا وهى وشيماء إلى بورسعيد، نركب قطار الصحافة، أطل برأسى من نافذة القطار الحديدية، وأترك جسدى يهتز مع اهتزاز العربة، وعينى معلقة على أعمدة الكهرباء التى تتوالى بسرعة كبيرة، فأظن أن القطار يهتز فقط ولا يتحرك، وأن العالم الخارجى هو الذى يجرى، يجرى بسرعة، فى حين أن شيماء كانت تبكى كلما مر علينا بائع، حتى ولو كان يبيع جلدة حنفية وكانت أمى تضربها وتشيد بأدبى وصمتى

وصبرى، وكنتُ أحب السفر والقطار، ولا أمِل أبدًا مهما طالت الطريق... ونعود آخر النهار سويًا، فى معصمى أكثر من ساعة، وتحت ملابسى لبسات حريمى وشربات، وتحت جلابية أمى جلاليب وقمصان نوم، حتى شيماء كان لها دورها؛ عند المرور من الجمارك كانت أمى تقرصها فى وركها فتبكى شيماء وتصرخ ولا تهدأ حتى يطلب منا المفتش شخصيًا أن نمر بسرعة! وحين نعود إلى البيت تظهر موهبة أمى الحقيقية فى البيع والمساومة والقسم بكتاب الله، كثيرًا ما كانت تنادى علىّ ثمّ تقول لأحدى الزبونات:

- مش ده ابنى أهو؟ وانتى عارفة إن الضنا غالى.

وتضع كفها على رأسى وتُكمل:

- وإن شا الله ما يوعى يكبر... إن شا الله يفقد نظره.. أنا جيبها بـ....

وتضرب ضعف الرقم فترضغ المرأة على الفور وتقول:

- بِعد الشرّ عنه.

وتناولها الفلوس كاملة!

أيقنتُ وقتها أن سمسم نصاب، وأن مظهره جزء من عمله، وعلى الرغم من ذلك فقد ظللت أسيرًا له! ولمّا طلب منى أن أعيره عدة بنطلونات يعرضهم وسط بضاعته ويحاسبنى آخر النهار وافقت.

- البنطلون عليك انت بخمسة وعشرين تبيعه بتلاتين أو خمسة وتلاتين... والبرامودا بخمستاشر تبيعه

بخمسة وعشرين ده أقل حاجة.. مش عاوزين حد يزعل مننا.

بعد صلاة الجمعة مررتُ عليه فوجده يساوم وردة:

- خديه بعشرين.

وهى تلح بدلال:

- خمستاشر حلويين.. شاور عقلك.

وقلت لنفسى "أنا بيتنصب عليا".

وتنحيتُ به وهمستُ:

- انت بتعمل إيه يا عم؟ هو أصلاً عليك بخمسة وعشرين وانت عاوز تبيعه بعشرين؟.

- م الآخر كده.. البت دى أمها عجبانى ونّا عاوز أنام معاها.. وفلوسك هتاخدها كاملة.

- ولو.. انت عارف إن البايعين هنا بيتفوا فى بُق بعض.. وأنا مش عاوز مشاكل.

- مالكش فيه.. أنا هتصرف.

ورغم عدم اقتناعى انصرفتُ.. لا أعرف لمَ كنتُ أشعر بالزهو لمجرد أننى تقربتُ منه وتكلمتُ معه! حتى وأنا على يقين بأنه يخدعنى ويغشنى، وكأنى كنتُ أشترى منه ذكرى أحكيها لأصدقائى على القهوة، أقول لهم: "مش أنا قابلت سمسم فى السوق.. واتكلمت معاه.. ده عيل غريب أوى.. بس طلع نصاب".

المفاجأة الحقيقية أنه أتانى بعد السوق وحاسبنى على البنطلونات على داير مليم! وحين سألته عن وردة قال:

- ما أنا قلت لك مالكش فيه.

وردة تفرد جسدها على السرير، قدميها جوار وجهى ووجهها جوار قدمىَّ. تقول:

- هات سيجارة.

فأسحب علبة السجائر من تحت المخدة، ألقى لها واحدة، تلتقطها ثمّ تنظر إليها.

- بتشرب نبوت الغفير؟

أبى أيضًا كان يشرب نبوت الغفير أو السجائر السوبر قبل أن يسافر إلى الكويت ويتعود على السجائر المستوردة والمبسم..

- احدف الكبريت.

أحدف لها علبة الكبريت، تشعل السيجارة وتسحب نفسًا، وتقول:

- أنا هبات معاك الليلة.

قال لى سمارة حين عرف علاقتى بوردة:

- يا معفن.. مالاقتش غير وردة.. ده أمها أحلى منها فقلت له إنها "جدعة وبميت راجل".

وهى فعلاً جدعة وبمائة رجل من عينة سمارة؛ كان الجو صيفًا وخانقًا، وكان الأسبوع الثانى بعد إمتحانات الثانوية العامة، والسوق مزدحم جدًا، والغبار يحجب الرؤية،

وكنتُ جديدًا على السوق، وكانت المرّة الأولى التى أفرش فيها لوحدى، وكانت التحذيرات تتردد فى أذنى "عينك فى وسط راسك.. لو غفلت ثانية هتتسرق.. الحرامية فى السوق أكتر من الزباين.. والبضاعة مش بتاعتنا".

وكنتُ يقظًا وعينى فى وسط رأسى بالفعل مما أعاقنى عن البيع، ولكن ما حدث زلزلنى وأربكنى وجعلنى أفقد تفكيرى، آلاف من البشر يركضون نحوى من بعيد ويصرخون، وظننت أن القطار دهس أحد، أو أن الكوبرى يسقط على رؤسنا، أو أن القيامة قد قامت، المهم... أننى تركت الفرش وجريت لا أعرف إلى أين! وكنتُ مشوشًا فسألت الرجل الذى كان يجرى بجانبى:

- فى إيه؟

فرد:

- مش عارف!

وفكرت فجأة فى البضاعة والشيكات والحبس فعدتُ وأنا أرتجف من الخوف، فلم أجد البضاعة، ولا حتى التربيزة التى استأجرتها من أم وردة.

فقلت لنفسى "مصيبة".

وبحثت عن البضاعة بلا جدوى، فكدت أُجن وانهرت، حتى ظَهرتْ وردة، وسحبتنى من يدى وأدخلتنى النصبة، ارتحتُ حين رأيتُ الملاءة وبداخلها البضاعة.

- فى حد يسيب شغله كده ويجرى؟

فأحسستُ بالخجل والندم:

- هو إيه اللى حصل؟

- خناقة... شوية عيال صيّع جروا السوق كله بالسنج والسيوف.

بَدتْ أجمل وقتها من المرّة التى رأيتها فيها مع سمسم، ربمّا تكون الشهامة قد أضافت لها! وتوطدت علاقتى بها، وعرفت إنها "غلبانة ويتيمة ومهجورة كالكلبة الجربانة"، فتعاطفت معها، واشفقت عليها، وحَكتْ لى حكايتها، وكيف عاشت على الصداقات والشحاتة من زوار المقابر، وأنها لم تكن تعرف من الطعام سوى البرتقال والقُرص التى كانت توزع عليهم كل خميس وفى المواسم، وأن الحياة كانت شاقة ومتعبة حتى فتح الله عليهم بالسوق، وأن العِشة التى نصبوها فى الخلاء كانت فتحة خير عليهم، فهم اليوم يأجرون القَفص الخشبى بـ (15 جنيه) والتربيزة الصغيرة بـ (20 جنيهًا) والبنك - وهو عبارة عن تربيزة ضخمة جدًا ومجوفة من الداخل يستأجرها أصحاب المصانع – بـ (150 جنيه)، "ده غير النصبة وتأجير الكراسى والشماسى أحيانًا"، وبذلك فقد تبدل الحال، وحين أخبرتها أننى من إمبابة فَرحتْ وقَالتْ:

- الخير من عندكم.

وكنتُ أعرف أنها تقصد أن سوق الجمعة كان فى إمبابة قديمًا، تحديدًا عند نفق إمبابة وحتى سيدى إسماعيل، وكان

مصدر رزق لأهل إمبابة، وأنا شخصيًا كنتُ أفرش فيه – مجانًا طبعًا – وأنا صغير بالكشاكيل والكراريس والكتب الخارجية... واليوم أنا مجرد عامل غريب ووحيد فى السوق الذى يحمل نفس الاسم القديم... وأتذكر أبى الذى كان يقول قبل سفره:

- إحنا ملوك.. إحنا الأصل.. كل الدول دى كانت بتاخد فلوس من مصر.

وكان يترحم على الملك وعلى أيامه.

- كسوة الكعبة كانت بتخرج من مصر كل سنة ده غير الهدايا والفلوس.

وكان يقول أيضًا:

- آهى الكويت دى ماكنش حد يعرفها غير لما لقوا البترول، شوية جاز خالوا البلد حاجة تانية.

فأتعجب من حال الدنيا، وأتذكر أن الأيام دول، وأن دوام الحال من المحال، وربمّا هذا السبب هو ما جعلنى أجد شبهًا بين سمارة وأبو الجاسم كلاهما محدثى نعمة، كلاهما حصلا على المال بلا تعب، كلاهما لعبت الجغرافيا والقدر والمصادفة فجعلتهما من أصحاب الفلوس والتحكم فى خلق الله.

ترمى السيجارة وتقوم، تفتح الدولاب.

- الدنيا برد موت.

ترتعش، تقلب فى ملابسى.

- إيه يا عم الهدوم دى! انت بتلبس مقاسات أطفال؟

أبتسم ولا أرد، تترك الملابس وتقفز بخفة لا تليق بوزنها على السرير وتندس تحت الغطاء بجانبى...

- ما تلفلنا سيجارة تدفينا.

- ولا فى بانجو ولا فى حشيش.

تدفن رأسها فى صدرى وتنام.

-8-

الحجرة عبارة عن سرير متهالك ودولاب معدنى أزرق قصير وترابيزة صغيرة، لم أبدل فيها أى شئ باستثناء اللمبة التى كانت تصدر نورًا أصفر باهتًا يجعلنى مشوشًا ومصدعًا طوال الليل، فاشتريت لمبة موفرة؛ الإضاءة البيضاء مبهجة ومناسبة لكائن ليلى مثلى، لم أكن أعرف إن الوحدة قاسية بهذا الشكل، أنا عشت عمرى كله وسط عائلة، على وجه الدقة مع أمى وأختى، والحياة مع العائلة تختلف تمامًا حيث الرعاية والود والمسؤولية، كما إنى أفتقد أمى وشيماء وأفكر فى زيارتهما أكثر من مرّة، ولكنها مغامرة قد تنجح وقد تفشل، حتى موبايل شيماء لا يرد، دائمًا مقفول أو خارج نطاق الخدمة، خارج نطاق الخدمة، خارج نطاق الخدمة!

جملة معبرة فعلاً وتصف حالتى وصفًا دقيقًا، أنا أيضًا خارج نطاق الخدمة، خارج نطاق الحياة، أقضى وقتى فى هذه الحجرة الصغيرة، أقرأ أحيانًا، وأحشش أحيانًا، وأتلصص على الجيران أحيانًا أخرى، وهذه الأخيرة متعة جديدة اكتشفتها مؤخرًا؛ فنحن كنا نسكن فى الطابق الأرضى حيث لا بلكونة تطل على عرائس جدد، ولا شرفة أتطلع من خلالها على أسرار حياة أخرى، أما هنا فالسطوح واسع ويطل على أكثر من ثلاثة بيوت دفعة واحدة، حيوات مختلفة، مسارح تقدم عروضًا مجانية وهزلية بشكل يومى. ليس بى رغبة اليوم فى التلصص، سألف سيجارة وأشربها، وربمّا سيجارتين، أو ثلاث سجائر، وهى كمية ضخمة بالنسبة لى وحدى. قد يأتى سمارة فى أيّة لحظة، ويطلب منى أن نذهب إلى فرح أو عزاء أو حتى طهور؛ مناسبات سمارة لا تنتهى، يحب أن يظهر بمظهر المعلم صاحب الواجب، وإن كل الناس أهله وحبايبه، وأنا شخصيًا لا أعرف أهل لسمارة، هو من أسوان، من أين فى أسوان لا أحد يعرف! ويُقال إنه من الصعيد وأن عليه ثأر، لذا فهو لا يغادر السيدة عائشة أبدًا، وأنا أنفى عنه حكاية الثأر تلك؛ لأنه جبان جدًا وحريص، ولو كان عليه ثأر لاختبأ مثلى، ولكنه دائم الحركة ومشهور فى سوق الجمعة كله وصوته عال، وصيته مع النساء معروف، والسوق ملجأ أبناء القرى والنجوع، ومن عليه ثأر بالتأكيد

سيتجنب الظهور فى تلك الأماكن المزدحمة، فما بالك بسمارة الذى يؤجر التربيزات والبنوك والأقفاص للباعة؟

سألف سيجارة واحدة، وسأجعلها ثقيلة، ثقيلة جدًا، وبعدها سأبدأ فى القراءة، كنتُ قد نسيتُ موضوع القراءة تمامًا، ولكن أبو عصام عرفنى على كُتاب كثر، وأنواع حديثة من الأدب لم أكن أعرفها من قبل، أين أبو عصام الآن؟ ربمّا يشتغل عند الأسطى صلاح! ولكنى أعرف أن المهنة "راحت عليها" وأن التماثيل الصينية قد غَزتْ المناطق السياحية؛ أسعارها رخيصة وأدق وأفضل من التى كنا نصنعها... فأين هو الآن؟

الليل لا يزال طويلاً، سألف سيجارتين، أشرب واحدة الآن، والأخرى قبل الفجر ثمّ أنام، أنا لا أحب أن أنسطل قبل النوم؛ رأسى تصبح ثقيلة كأن بها كميات هائلة من الرمل، كما أن الكوابيس تدهمنى بكثرة... آه... أشعر بالملل والزهق، كلما تذكرت أننى سأظل مختبئًا هكذا لسنوات أفضل الموت، فى البداية كنتُ أقول لنفسى "كأنى فى إعارة سنتين تلاتة".

ولكنى اكتشفتُ أننى أخدع نفسى، الإعارة شئ مختلف، عمل شاق فعلاً، ولكن من حقك أن تمرح قليلاً، أما أنا فأعمل من أجل ملاليم ولا يحق لى المرح، أضف إلى ذلك إحساسى الدائم بالخوف، فى أيّة لحظة قد تسقط يد على قفايا ثمّ

تسألنى عن البطاقة، بعدها ستنكشف القضية وأجد نفسى فى السجن أقضى فترة العقوبة.

قالت أمى:

- ملعون أبو الفلوس.

وبَكت، ثمّ ضربتنى على وجهى...

- تربية مَره.

وصرخت.

– خايب زى اللى جابك.

وانهارت تمامًا، قبّلتُ رأسها، وبكتْ شيماء وطَبَطبتْ عليها، قالت:

- وهنجيب الفلوس دى منين دلوقت؟

ونَظرتْ فى عينى مباشرةً.

- هيسجونك؟ واحنا لينا مين غيرك؟

ثمّ بعطف.

- طب قولى فين مكان الراجل ده وأنا أروح أبوس جزمته.

وسكتتُ، كنت أعلم أنها ستبوس جزمته بالفعل لو عرفت مكانه، كان مجرد تخيل مثل هذه الصورة يمزقنى ويجعلنى أتمنى الموت.

- الحكومة كل يوم والتانى هتنط علينا ومش هتسيبنا فى حالنا.. ده شكله راجل واصل.

وهو كان واصلاً فعلاً، وله مصالح مع ضباط تنفيذ الأحكام، وشعرتُ أن الأرض تضيق بى، وأن القدر يدفعنى نحو جرائم أكبر، وتخيلتُ موته وتمنيته، وهو كان قويًا وجبارًا، تعرفت عليه أثناء بحثى عن عمل، كنتُ قد قررتُ أن أبحث عن شغلة بعيدة تمامًا عن الأسطى صلاح، وجاءت الفرصة عن طريق سعيد الذى كان يشتغل ترزيًا فى إحدى الورش الصغيرة، قال لى وقتها:

- هعرفك على صاحب مكتب ابن حلال.. راجل سُكرة وطيب.

وكانت الشغلانة سهلة، مع أذان الفجر نحمل البضاعة – أنا وبقية الصبيان – ونتجه إلى سوق الجمعة، نفرش البنك الكبير بالملاءات، ونرص البضاعة: أحذية رياضية وشباشب فى زواية، ملابس رياضية أيضًا، وكابات مقلدة فى زواية أخرى، وأحيانًا أخرى كنا نفرش بالقمصان والبنطلونات القماش والجينز... وكانت البضاعة كلها عيوب تصنيع ديفوهات أو بواقى تصدير، ولكنها عيوب صغيرة لا يلتفت لها الزبون عادةً، كنا نحرقها بنصف ثمنها تقريبًا، كنتُ أقف فوق البنك وألوح بقطعة ملابس.

- خش على التوكيل يا كابتن.. خش على الأديداس يا كابتن.. المعلم محبوس وعاوز فلوس يا كابتن.

وكان آخر يقف على طرف البنك ويهتف:

- مجنون ده وللا إيه.. بيبيع ببلاش.

وكانت البضاعة تُباع كلها قبل صلاة الجمعة، فنلمُّ ما تبقى ونذهب إلى الصلاة، وأنا أتوضأ كانت المياه تخرج من فمى سوداء، وكنت حين أكح يخرج البلغم أسود من الغبار الذى كان يملأ السوق، وفى آخر اليوم يحاسبنا صاحب المكتب، وكانت يوميتى وقتها (50 جنيهًا) وهى يومية لا بأس بها بالنسبة لعمل يوم واحد، ولكنى طوال الإسبوع عاطل عن العمل ولا دخل لى، فكانت الفلوس تتبخر بعد ثلاثة أيام على الأكثر، الأمر الذى جعلنى أفكر فى العمل باقى الأيام، وبالفعل أخذت عينة من الشغل ودرت بها على المحلات، وكانت المحلات كلها تتعامل بالدين الآجل أو الأمانات – أى ترك البضاعة والحساب بعد البيع – وهذه الطريقة فى البيع تحتاج إلى رأس مال وأنا لم أكن أملك ثمن علبة سجائر، واكتفيت بيوم الجمعة، ومع الوقت توطدت علاقتى بصاحب المكتب، وشرحت له ظروفى، وكيف أُعيل وحدى أمى وأختى، ولم أخجل من البكاء أمامه وأنا أقص عليه حكاية أبى وسفره ثمّ اختفائه الغامض، وتأثر هو بكلامى، وقال لى:

- امضِ على وصل أمانة.

فوقعتُ، وقال لى أيضًا:

- أنا هديك شوية شغل تصرفه بمعرفتك، وحقى أنا ضامنه، وانت وشطارتك.

وصرفت الشغل، فى أقل من عشرة أيام كنتُ قد وزعت الشغل كله على المحلات، بعدها دوخت حتى أتمكن من لمّ

الفلوس. وقلت لنفسى "الشغل الآجل ده مش هيأكل عيش، مافيش أحسن من التعامل مع الزبون مباشرةً".

وجاءتنى فكرة "ما المانع فى أن أفرش فى شارع طلعت حرب مثلاً مثل عشرات الشباب".

ورحتُ أتجول فى شوارع وسط البلد حتى وجدت المكان المناسب، أمام مول طلعت حرب بجوار حلوانى العبد، تلك المنطقة مكدسة بالبشر ولا أحد يفرش فيها وليس بها سوى كشك صغير يبيع الإيشاربات وعربية سندوتشات، وأنا بضاعتى مختلفة عنهما، وطلبت من النجار أن يصنع لى ترابيزة يمكننى أن أطويها بسهولة وتكون خفيفة فى الحمل، وصنعها، وجاء اليوم المرتقب، فى الساعة السابعة، ووسط الزحام الشديد بدأت فى إعداد الفرش، وقلت فى سرى "بسم الله الرحمـ...".

فإذ بيد تنخزنى فى جنبى.

- انت بتعمل إيه؟

بتوجس نظرت خلفى وارتحت حين رأيت الرجل قصير وملامحه بعيدة عن ملامح رجال الشرطة.

- هفرش بشوية هدوم.

ابتسم ثمّ ضحك.

- انت فاكرها سويقية يا روح أمك.

ثمّ بلهجة غاضبة.

- لمّ حاجتك دى ياد وغور.

ولممتُ حاجتى وغرت دون أن أتجرأ وأسأله من هو! وفكرت فى العودة إلى البيت، ولكن الإصرار قد تمكن منى، عبرت الشارع ومشيتُ فى اتجاه ميدان طلعت حرب، قبل مكتبة مدبولى كان الشارع شبه مظلم والمارة قلائل، فقلت لنفسى "هنا".

وانزلتُ البضاعة من على كتفى، وفتحتُ الترابيزة ووضعت فوقها الأبلاكاشة الكبيرة، وبدأت فى رص البضاعة، ولكن الفرحة لم تتم؛ بائع الشرابات على الصف المقابل جاءنى جاريًا.

- بس.. بس.. انت فاكراها سايبة.

واستغربتُ.

- فى إيه يا عم؟

- بلا عم بلا مش عم.. اتكل على الله وامشى من هنا.

وقلت له إننى أبيع الملابس وهو يبيع الجوارب ولا علاقة بين سلعتى وسلعته، ولكنه زعق.

- ما النهار ده انت تبيع هدوم.. وفلان يبيع جزم.. وعلان يبيع ما أعرفش إيه... وتبقى سوق.. والبلدية تيجى تيشلنا كلنا.

واعتقدت أن بإمكانى اقناعه بالمنطق ولكنه لم يعطنى فرصة، وحزم موقفه حين قلب الترابيزة بضربة من يديه.

أعتقد أننى سألف ثلاث سجائر؛ الحديث عن تلك الفترة سيطول، وهو حديث ممل، الوحدة تجلب دائمًا الذكريات

التعسة، أريد أن أسرد تلك اللحظات بكل التفاصيل الدقيقة، وأحيانًا أخرى أرغب فى الاختصار الشديد، وأتمنى أن أكتفى بالتنويه عن تلك الفترة فى جملة موجزة، وهى مشكلة لا أعرف لها حلاً، يبدو أن سطوة الماضى تتدخل فى الذاكرة وفى عملية الحكى، والتجرد من المشاعر أثناء الحكى وهم، وهم كبير، وأنا صغير كنت أتمنى أن أصبح كاتبًا وعالمًا مثل مصطفى محمود، ولكن الكتابة من وجهة نظرى كانت تأليف، خلق عالم متخيل، وأن الكتابة التى ترتكز حول الذات وحول ما حصل للكاتب هى نوع من الإستسهال، غير أننى اليوم لو كنت أكتب قصة حياتى، وما أتذكره الآن فى غرفتى فوق السطح لكنت فى ورطة كبيرة، فهل يمكن مثلاً أن أستعين بفِرد الأحذية الموجودة تحت السرير؟ ولماذا أنا أصلاً لا زلتُ محتفظًا بتلك الفِرد؟ باختصار شديد سأحاول الكلام بوضوح وإيجاز دون التوغل فى تفاصيل تافهة، المهم، بعد كل المحاولات الفاشلة فى الفرش بوسط البلد، وبعد عدة أشهر، عرفت أن الفرش فى رمسيس – تحديدًا أمام مسجد الفتح وفى الجهة المقابلة أمام عمارة رمسيس وبنك مصر – ممكن وسهل وكل ما علىّ فعله هو دفع (5 جنيهات) للعسكرى و(10 جنيهات) للضابط، وفرشت وتأقلمت مع الباعة والسريحة وحتى اللصوص، وكان الشغل يبدأ بعد منتصف الليل وحتى الفجر، المشكلة كانت تكمن فى البلدية، وكانت لنا كلمة سر، فإذا هتف أحد الباعة قائلاً "يا عربى"، فهذا النداء

معناه أن البلدية جادة، وأن الحملة بها رُتب وهذا يعنى حمل البضاعة والاختباء فورًا فى الأزقة الجانبية، وإذا كان النداء "يا صلاة النبي" فهذا معناه أن سيارة البلدية تمر بشكل روتينى وليس فى نيّتها أيّة استعدادات للهجوم على الباعة.

الأحذية الرياضية كانت الكنز الثمين الذى اكتشفته، حين عرف صاحب المكتب أننى وجدت أرضية فى رمسيس عرض علىّ أن أفرش بالأحذية.

- الكاوتشات فيها لقمة عيش حلوة.. ومعظم البياعين فى رمسيس بيفرشوا بهدوم.. وزبونهم دايمًا جديان.. يا إما عسكرى.. يا إما واحد نازل من الأرياف.. أما بقى الكاوتشات النايك والأديداس والكابات فدى زبونها حاتى وممكن تحذيه.. زبونها شباب بيفهم فى اللبس وبيقدر الحتة اللى على الفرش.

وفرشتُ بالأحذية الرياضية المقلدة، وأحيانًا كانت تقع فى يدى حتة أصلى من السوق فاشتريها ثمّ أبيعها فى رمسيس بضعف ثمنها، وبدأت الحياه تبتسم، ثم ضَحكتْ، ثم عادت لعبوسها مرّة أخرى... وأنا أساوم زبونًا هوت يد قوية على قفايا، خفتُ وارتجفتُ ونظرتُ خلفى، كانت البلدية! من أين أتت، وكيف ظهرت فجأة؟ وكأن الأرض قد انشقت وصعدوا من بطنها! بحركة لا إرادية تملصت من اليد وجريت، وجريت حتى انقطع نفسى، لم أجرأ على النظر خلفى

حتى، ولم أسأل عن مصير البضاعة، وجدت نفسى فى الموقف فقفزت فى أقرب ميكروباص وعدتُ إلى البيت، بعد أن هدأت بدأت أفكر فى الشغل، كنت على يقين أن البضاعة الآن فى الحى وكل ما علىّ أن أذهب إلى هناك وأدفع الغرامة، وكان معى وقتها (500 جنيه) وهذا مبلغ كاف جدًا، وكنتُ موقنًا أيضًا أننى لن أحصل على البضاعة كاملة؛ الموظفون ورجال البلدية وحتى العساكر سيأخذون كل ما هو غال منها، ولكن ما حدث كان لغز بمعنى الكلمة، فبعد أن سددت الغرامة طلبوا منى أن أذهب إلى الساحة بصحبة عسكرى حتى أحصل على ما تبقى من الشغل، فصعقت حتى رأيت كل الأحذية بلا فِرد يمين! كل الأحذية بلا استثناء وبلا نقص كانت عبارة عن فِرد شمال فقط! حتى العسكرى اندهش وقال لى:

- يمكن يكون هنا ولا هنا.. أصل مين هاخد فردة ويسيب فردة!

وبحثنا طوال النهار بلا فائدة، وعدنا إلى غرفة الموظفين فاستغربوا أيضًا، وقال الموظف:

- مش معقول حد يسرق فرد جزم! هيعمل بيها إيه؟

وبحثنا مرّة أخرى بلا جدوى، وفى النهاية لففتُ الفِرد فى الملاءة وحملتها على كتفى ومشيتُ.

فى المكتب شخر الرجل وسبّ الدين ثلاث مرّات، وقال لى:

- أنا ماليش فيه.. أنا عاوز فلوسى.

وكانت البضاعة تقدر بحوالى (3000 جنيه) فقلت له:

- شغلنى بيهم.

- وحياة أمك.. انت تروح بيتكم تشوف أى حاجة تبيعها وتجيب لى فلوسى.. دى مشكلتك.. إن شا الله تشحتهم.

وبيتنا لم يكن فيه ما يستحق البيع، وتشاجرت مع أمى، ثم قلت لنفسى "يضرب دماغ أمه فى أنشف حيطة".

ولكنه قدم الوصل للنيابة بعد أن كتب فيه (50000 جنيه)، وجاءنى المُحضر فاعطيته (50 جنيهًا) ولم أستلم الإخطار، بعدها عرفت أنه حُكم علىّ غيابًا بسنة وغرامة (5000 جنيه) ولكنى لم أهتم وكأن شيئًا لم يكن، غير أن ضباط تنفيذ الأحكام هجموا على البيت أكثر من مرّة، ومن حسن الحظ أننى لم أكن موجودًا، وزعقت أمى:

- احنا خلاص اتفضحنا فى المنطقة.. انت هتدخل السجن وأختك مش هتلاقى اللى يرضى بيها.

وبكت، وبدأت تهلوس وتتحدث إلى أبى، تعاتبه وتشكى له وترجوه أن يعود.

وعدتُ أنا إلى سوق الجمعة بعد معرفتى أن صاحب المكتب توقف عن الفرش فى السوق لأنه مشغول بطلبيات سوق ليبيا، واشتغلت مع سمارة الذى توسط لى وأسكنى فى هذه الحجرة الصغيرة، كنت أعتقد أننى سأوفر من شغلى الفلوس اللازمة وأسدد الدين، ولكن – حتى وقتنا هذا – لم أستطع أن أوفر مليمًا واحدًا، كل مكسبى يضيع على

المصاريف والأكل والسجائر والمخدرات، وبُخل سمارة لا يعطى أى أمل فى السداد، أحيانًا أفكر فى الرحيل، وأتذكر حكايات أمى والبلاد التى تشيل وتحط، ولكن الواقع جعلنى كالوتد المغروس فى أرض صلبة بعنف، أتذكر أيضًا قول أبى:

- أنا ماقدرش أنزل من السكن من غير موافقة الكفيل بتاعى.

أنا أيضًا لى كفيلاً، فسمارة الذى أخذ بطاقتى الشخصية ويعرف سرى بإمكانه أن يسلمنى للحكومة فى أيّة لحظة. ولا أستطيع أن أغادر الحجرة أو أنزل من البيت دون موافقته أو مرافقته.

ها هو الضوء ينتشر فوق السطح، وقطعة الحشيش أمامى لم أمسها، لن أشرب الليلة، لا ثلاث سجائر ولا سيجارتين ولا حتى سيجارة، سأكتفى بالنوم، والصباح براح.

-9-

أنـا الآن أشـعر بـالجوع، بـالجوع والكسـل، ولا أريـد أن أغـادر الحجـرة وأبحـث عـن طعـام فـى الشـوارع؛ الكشـرى وسندوتشات الكبدة والفول والطعمية كلها أكلات أكلت منها حتـى الزهـق. فـى الـدولاب علبـة تونـة وعلبـة جبنـة وثـلاث بيضات، لـو كـان عنـدى بصل كنتُ قطعتـه شرائح وقليت بـه الثلاث بيضات. أنـا أحب الطبيخ ولكنـى لا أجيد الطهى، أجيد الأكل فقط. أمى أيضًا ليست طباخة ماهرة، عملها فى الخياطة والبيع والشراء كـان يعوق دورها كأم، ولكن شيماء طباخـة مـاهرة، تعلمـت الطبخ مـن الكتب والبـرامج التلفزيونيـة، هـى موهوبة فى الطبخ، أكلت من يديها أحلى الأكلات.

أفـتح علبـة الجبنـة وأفرغهـا فـى الطبـق البلاسـتيكى الأخضـر، وأنـزع الغطـاء عـن علبـة التونـة، وأبحـث عـن العيش... أيـن تركتـه؟ بـداخل الـدولاب.. ليس موجـودًا، ربمّـا تحت السرير، أبتسم؛ لا أحد يضع العيش تحت الأَسرّة إلا إذا كـان فخًـا للفئـران. أيـن العيش؟ أمـد يـدى وأتحسـس سـقف الدولاب فأشعر بالكيس البلاستيكى وأسمع خشخشته، ألتقطه وأستخرج منـه العيش، ثلاثـة أرغفـة، هذا كـاف جدًا؛ لـم أعد آكل كثيرًا مثلما كنت آكل من قبل، ربمّـا تكون المخدرات قد

أثرت على شهيتى، وربمّا تكون الظروف التى أمر بها، وربمّا أيضًا الوحدة التى أعانى منها.

العيش ناشف، لا أستطيع أن آكله هكذا؛ أنا جائع جدًا، جائع فعلاً. أشعل السبرتاية وأقلب عليها العيش رغيفًا تلو الآخر، الآن لدىّ وجبة شهية.

مرّة، حكى لى أبو عصام حكاية غريبة جدًا، هو نفسه لا يعرف إذا كانت حصلت فعلاً أم لا: كان له جار يعمل طباخًا فى دار الدفاع، وكان هذا الجار على حد قول أبو عصام "فيه حاجة غلط" على الرغم أن مظهره وملامحه طبيعية تمامًا بل ويبدو محترمًا، ولكنه إذا تكلم أظهر شخصية أخرى مختلفة حد التناقض، وهو دليل حى للمثل القائل "تكلم حتى أراك"... وذات مساء، كان يجلس على القهوة جوار أبو عصام مبسوطًا ومنسجمًا مع أغنية أم كلثوم، يدخن الشيشة ويهز رأسه يمينًا وشمالاً ويدندن ويصفر، وهى حالة جديدة عليه، فهو عابس ومتجهم دومًا كما يصفه أبو عصام، فسحب أبو عصام الكرسى ولصقه بجانبه، وطلب له شايًا، ثم شكر الجار على العقيقة التى أرسلها إلى المسجد بعد صلاة العصر، واثنى على المخ والكبدة والمكرونة الفرن، ثمّ سأله:

- هى العقيقة دى كانت بمناسبة إيه عشان نبارك لك؟

فلم يرد الجار، وابتسم وهز رأسه وهو يردد مع الأغنية، فأحس أبو عصام بالخجل وسَكتْ، بعد دقيقة كاملة، وربمّا أكثر... تنحنح الجار ورشف من الشاى ودلك حنجرته

فأعتقد أبو عصام أنه سيغنى أو سيلقى خطبة، ولكنه بدأ الحديث بصوت هامس دون أن ينظر إلى أبو عصام وكأنه يتكلم مع نفسه:

- كانت حلوة، حلوة أوى.

وعاد للصمت، وسحب نفسًا من الشيشة، وانتظره أبو عصام أن يُكمل، لكنه هز رأسه مجددًا وراح يدندن مع الأغنية "ابتديت دلوقت بس أخاف.. أخاف للعمر يجرى" فتجاهله أبو عصام وانشغل عنه، بعد دقيقة أخرى قال الجار بنفس النبرة القديمة:

- قلت لأمها أنا مش عاوزها غير بالجلابية اللى عليها.. مش عاوز منكم قرش صاغ.. كل الناس قالولى دى عيلة كلها مجانين وأمها بتاكل قطط.

ونظر له أبو عصام وسأله:

- حماتك بتاكل قطط؟

وكاد أن ينفجر فى الضحك، غير أن الجار واصل كلامه بجدية...

- قلت لنفسى قطط إيه يا واد وكلاب إيه؟ دى عالم بنت قحبة مش بتحب الخير لحد.. وبعدين أنا مالى ومال أمها.. قال قطط قال.. حتى لما شوفتها بعينى وهى بتسلخ القطة.. آه والله قطة أكبر من دكر البط ما صدقتش نفسى.. طظ.. طب ما فى بلد بحالها بتاكل كلاب.. وبتوع فرنسا بياكلوا ضفادع.. أنا نفسى

بعرف أعمل تلت أنواع من شوربة الضفادع وكت باكل منها كمان.. طظ.. إيه يعنى حتة ديل صغير شوفته فى ضهرها.. آه والله ديل.. بس هى كانت جميلة وبيضة وكان عليها جوز عيون.. أنا لفيت فنادق مصر كلها.. شوفت أجانب وعرب ومصريين من أول بتوع الخارجية لغاية الشراميط عمرى ما شفت حد فى جمالها.. ليلة الدخلة دى كانت ليلة.. مَره مَره بصحيح.. خلصنا واستحمينا.. وهى ما اتكسفتش وورتنى الديل.. هو مش ديل ديل.. حتة جلدة صغيرة تحت ضهرها على طول.. عيب خلقى.. طظ.. ما فى ناس بتتولد بصباع زيادة.. آه والله.. وفى ناس بتتولد بصباعين.. وفى عز الليل.. وهى نايمة جنبى تفضل تطلع أصوات غريبة كأنها قطة عمالة بتنادى على داود.. آه والله.. والصبح أقولها على اللى حصل فترد عليا وتقولى روح اكشف انت الأفلام الرعب كلت دماغك.. وكل يوم وانا رايح الشغل كات تقولى هات معاك كبدة جملى.. وتقعد تاكل فيها نية وبدمها.. جدى برضه كان بياكل الكبدة نية.. آه واللهى.. يرش عليها الملح والفلفل الأسود.. وبعدين الكبدة مش غالية ولا حاجة.. أنا كت بجيبها من الدار برخص التراب.. طظ.. طظ فى الفلوس.. بس أنا كت شاكك فيها.. وقولت هيه حاجة من

اتنين.. يا إما مذؤبة.. يعنى بتتحول لديب بالليل.. مش كل يوم يعنى.. فى نص الشهر العربى بس.. لما القمر يكون بدر.. يا إما تكون مصاصة دماء.. وتقولى أنا مخى اتلحس ولازم أكشف.. أكشف على إيه والنبى.. والظابط يقولى انت شكلك بتبرشم.. وضربنى على قفايا.. ملعون أبو الظابط.. ده مش برشام ده علاج ومش ممنوع كمان.. وهى كل يوم تتخانق معايا.. وحسيت أنها ناوية تعضنى عشان أبقى زيها.. كل ما أنام معها.. تبقى عاوزة تركب عليا وتعضنى من رقبتى.. بس أنا كنت واخد بالى ..طظ فى أى حاجة.. طظ فيها هى كمان.. نفسى نفسى.. آه والله.. نفسى نفسى.. وفكرت أتخلص منها.. وهى نايمة طعنتها بالخنجر الفضة بتاكل أبويا.. ودقيت خشبة فى قلبها.. وجبت صليب كبير وحطيته على وشها.. وفضلت يومين قاعد جنبها.. كنت حاسس إنها هتقوم فى أى لحظة.. وفكرت أجيب تابوت من حانوتى بتاع مسحيين وأرميها فى النيل.. بس هى بنت اللئيمة عملت نفسها ميتة بحق وحقيقى.. جسمها كله أزرق ودمها أتصفى وغرق الشقة وبقت باردة زى التلج.. آه والله عملت نفسها ميتة.. ومسحت الشقة وقولت ما بديهاش.. جرجرتها على المطبخ وحطيتها على الرخامة.. وطلعت

الساطور والكزلك وبدأت أشفى فيها.. وطلعت مخها وكبدتها وعملتهم بالبيض والبُقسماط.. وشفيت لحمها كله وطبخت صوانى مكرونة بشمل وسلقت لحمة الراس وحمرت وشويت وعملت فتة كمان وبَعت الأكل للجامع.. قولت إنها هتكون فى بطن ناس بتعرف ربنا وبتصلى ومؤمنين وبكده مش هتقدر تصحى تانى زى ما بيحصل فى الأفلام الرعب.

هنا، انتفض أبو عصام من على الكرسى مذهولاً، وحاول أن يقبض على رقبة الجار، ولكنه رغب فى التقيؤ بشدة، وجرى نحو المبولة، وقبل أن يصل إليها أفرغ معدته على الأرض، وراح يصرخ.

- يا بن الكلب يا مجنون.. يا بن الكلب يا مجنون.

والجار يضحك ويصفر ويغنى.

وأنا صغير كنت موقنًا بأننى عالم، عالم حقيقى وروحى هى روح أينشتين، وكنت أستغل الفترات التى تغيب أمى وشيماء عن البيت فأنادى على سامى ونقوم بإجراء تجارب علمية، يحضر لى كتابًا فى مادة الفيزياء يخص أخاه الكبير الطالب بالصف الأول الثانوى، نقرأ المكونات وننقل الرسم، ونفكر أين يمكننا أن نجد تلك المواد، فيجيب سامى:

- عند الموان.

ونذهب للموان ونناوله الورقة، فيقرأها باستغراب ثم يسألنا:

- هى الحاجة دى عاوزينها فى إيه؟
- هنعمل صاروخ.
- صاروخ إيه؟ صاروخ ورق يعنى؟

فنرد:

- لا.. صاروخ فضائى.. زى المركبة الفضائية كده.

فيضحك ويعيد لنا الورقة ويواصل عمله متجاهلنا... ومرّة، قررت أن أخترع وجبة خارقة، مَن يأكلها يصبح على الفور مثل سوبر مان وفتحت الثلاجة، وأخذت عينة صغيرة من أى شئ قابل للأكل، سكر، ملح، طماطم، خيار، توابل، قطعة لحمة صغيرة، وكل ما وقعت عليه يدى، ووضعتها فى الخلاط وضغطت على زر التشغيل، وكاد الخلاط أن يحترق، شممتُ رائحة شياط، وقال لى سامى:

- الخلاط كان هيتحرق عشان نسيت تحط ميه يا فالح.

وقلت له إن هذا المشروب به كل الفيتامينات التى خلقها ربنا، وأن كوب من هذا الخليط سيجعلنا أقوياء. وكان هو أكثر جرأة منى، فصب كوبًا وتناوله دفعة واحدة كأنه يشرب شَربة، وانتظرت لحظة التحول، وتخيلته وهو يتضخم ويتمدد وتتمزق ملابسه كالرجل الأخضر، ولكن لم يحصل شئ من ذلك، غير أنه ابتسم وقال:

- أنا حاسس إنى لو ضربت أيدى فى الحيطة هتعدى الناحية التانية.

وشجعتنى تلك المقولة جدًا، فصببت كوبًا وشربته كما شربه هو، وبدأت أحس بالطاقة تسرى فى جسدى بالفعل، وظننت أن بإمكانى الطيران إذا رغبت فى ذلك، وكل ما علىّ فعله هو أن أشب لأعلى وأشد قامتى فأطير، ولكنى خفت أن أرتطم بالسقف، أو أن أكسر الشقة بقوتى الهائلة. وطلب منى أن نخرج ونلعب فى الشارع، وخرجنا، والقوة الجبارة تتملكنا، فمشينا فى الشوارع بزهو وتحفز، ونحن نمنى أنفسنا بخناقة، بمعركة تظهر قوتنا الخارقة... وجاءت المعركة، وبلا مبرر تحرشنا بثلاثة عيال، فى سننا تقريبًا، وربمّا أكبر قليلاً، وضربونا، ضربونا وسحلونا ومزقوا ملابسنا، وبكينا حتى يرحمونا ويتركونا لحال سبيلنا، ولكنهم كانوا أقوياء فعلاً. كنا من بدأنا الشجار، افتعلنا أسبابًا وتشبثنا بها، وبعد دقائق من المعركة تمنينا أن يحول بيننا أحد المارة، ولكن الناس كانت تمر من أمامنا دون أن تتدخل أو حتى تلتفت لنا، فما كان منا إلا أن نطلب المساعدة بأنفسنا فى مذلة ومسكنة.

- الحقنى يا عمو.. العيال بيضربونا.. الحقنى والنبى يا عمو.

وعمو لحقنا، وحال بيننا، واشتكوا له العيال:

- هما اللى شتمونا واحنا ماشين فى حالنا.

وخفنا أن يرق قلب عمو ويحنو على العيال فيعنفنا أو يتركنا لهم، فبكينا واخفضنا رؤوسنا بذل، فقال:

- طب خلاص كفاية كده.

وعدنا إلى البيت محملين بالإهانة.

وقال سامى:

- أدى آخرة اختراعاتك يا عم أينشتين.

فصرخت فى وجهه:

- أنا اسمى عاطف.. عاطف مجدى.

من يومها، قررت أن أتوقف عن الحلم، عن التشبث بالخيال والآمال الخائبة.

-10-

هـى تنظـف الحجـرة، تحمـل الترابيـزة وتضـعها فـوق السرير، تطوى الحصيرة وتركنها إلى جوار الباب ثمّ تسحب الجردل الكبير وتحطه تحت الحنفية.

أنا أستند على السور وأشعل سيجارتى الخامسة، وأنظر إلى الشارع بملل، بقايا الحلم فى صدرى وذاكرتى: محطة مصر المزدحمة بخلق الله، والرجل الذى يشبه الرجل الغريب الذى كان يقابل أمى فى حديقة الحيوان يقطع لى تذكرة السفر وهو يبتسم كأنه يقول "أيووووه... أنا صاحب الكرة... عندك مانع؟" والقطار الذى يهتز ويأرجح جسدى للأمام والخلف، الشيخ الجالس إلى جوارى يرتدى تيشرت شبابى وشورت رياضى ذات الملابس التى كنت أبيعها على رصيف رمسيس، وأسأله "هو القطر ده بيروح فين؟" فيداعب لحيته البيضاء الطويلة ويرد "للمكان اللى انت عاوزه" ويسبح على مسبحته الضخمة، أتأمل رسمة التمساح الصغير الأخضر

على جيب التيشرت وأسكت، وأتحسس جيبى فلا أجد للتذكرة أثر، أخاف من الكمسرى وقت المرور، أفتش كل جيوبى فلا أعثر عليها، ألتفت كى أسأل الشيخ عنها فأجده قد تحول إلى فأر ضخم، نعم... فأر بلحية بيضاء طويلة وتيشرت وشورت ومسبحة ضخمة ورسمة تمساح حزين ووحيد على جيبه، أخاف من الشيخ وأقوم مفزوعًا، تقتلنى الدهشة؛ كل الناس فى العربة تحولوا إلى حيوانات مختلفة: أرنب فى حجم طفل يرضع من خنزير فى لباس امرأة، كلب يقرأ فى كتاب، قردة تأكل ساندوتش فول، أكتشف فجأة بإننى الإنسان الوحيد فى المكان، فأحس بالوحدة والوحشة والغربة فأبكى.

هى تملأ الجردل وتحاول أن تنزعه من مكانه ولكنها تعجز، تتركه مكانه، وتمسح العرق وتنظر ناحيتى.

أنا لا أفكر فى مساعدتها، وأقول لنفسى "هى اللى اختارت"، ولا أسأل نفسى "اختارت ماذا؟"، وأعود لأحلامى، أنا ممسوس بموضوع الأحلام هذا، النوم الذى لا أحلم فيه هو نوم شاذ، والغريب فعلاً أن معظم تلك الأحلام تتحقق، ولكنها أحلام بلا قيمة حقيقية، فأنا مثلاً حين أحلم بفلان، ويكون فلان هذا زميل دراسة قديم، وتكون الصلة بيننا قد انقطعت تمامًا فأقابله صدفة فى الطريق، فأقول لنفسى "حلم ورؤيا وحوارات عشان فى الآخر أقابل فلان ليه يعنى؟ طظ.. هو أصلاً ما يفرقش معايا" طوال عمرى وأنا مؤمن بمبدأ المسببات، أو العلاقة بين الأسباب والمسببات، وكنت أقول

لنفسى إن هذه الأحلام التافهة مقدمة لرؤيا عظيمة من الممكن أن تغير البشرية، وظللت أنتظر مجيئ تلك الرؤيا المزعومة حتى كفرت بها.

هى تحاول أن تحمل الجردل مرة أخرى فلا تستطيع، تتركه وتبحث على السطح عن شئ ما، تروح هنا وهناك، تنحنى، تتفصح الحاجات المبعثرة حتى تحصل على قطعة قماش قديمة وبالية، تلفها على يدها، وتسحب الجردل الضخم فيرضخ لها مبتهجًا.

أنا، أراقبهما وهما يدخلان الأوضة فأتخيلهما جندى مخلص وشجاع يسحب آخر جريح ومصاب. أقول لنفسى "أنا أحب فزلكة الأحداث" وأبتسم، وأطوح عقب السيجارة ناحية السطح المقابل، ولكن الرياح الخفيفة تتحكم فى طيرانه وتجرفه نحو ناصية الشارع. أتابع عملية الهبوط بترقب، وأتوقع أن يسقط العقب على الرجل الأصلع الذى يلعب الطاولة أمام باب بيته، ولكن العقب يمر من فوقه بسلام ليستقر على مفرش سيارة.

هى تخرج من الأوضة، وقد شمرت عن ساعديها، وقد لفت طرف الجلابية حول خصرها، وقد لمت شعرها وعقدته من الخلف، ولوحتْ بالأجندة الزرقاء التى كنت أكتب فيها أشعارى، فى الحقيقة، وحتى أكون صادقًا تمامًا: الأجندة لم تكن زرقاء، كان غلافها ـقديمًاـ أزرق ثم تمزق وزال عنها فبدت كالشجرة الجرداء: حزمة من الأوراق البالية.

أنا، أفرح حين أرى الأجندة، مدة طويلة ولم أرها، أنا أصلاً كنت أظن إننى نسيتها فى شقة إمبابة.

هى تلوح بالأجندة:

- عاوز الكراسة دى؟

وأنا أمد يدى، وأهز رأسى.

- آه، هاتيها.

وآخذها منها، وأفر أوراقها بسرعة، كأنما أرى عمرى كله يجرى فى ثوانى. فى هذه الأجندة حياتى، نعم، حياتى منذ بدأت كتابة الشعر والخواطر حتى وقتنا هذا. فى كل خاطرة أو محاولة كتابة ذكرى وأحداث وحياة. أفر الأوراق حتى أقف عند قصيدة بعنوان: "مش لازمنى حاجة"، وأتذكر أننى كتبتها خصيصًا من أجل قصر ثقافة إمبابة، ولكن قبل القصيدة وقصر الثقافة كانت هناك امرأة، امرأة جميلة وممشوقة القوام وبيضاء وعيونها ملونة، وكانت تلبس عباءة سوداء مطرزة وغالية، صديقة أمى... هل كانت صديقتها أم زبونة عابرة؟ أعتقد أنها كانت مجرد زبونة. حين جلست على الكنبة قالت لها أمى:

- ده عاطف ده بيموت فى العلام.. فى ثانوية عامة السنة دى.

ونظرت لى الصديقة أو الزبونة باهتمام وأعجاب، وكنت قد قرأت فى نظرتها انبهار بالغلام الطموح الذى يواجهة

الدنيا والفقر والظروف بسلاح العلم والمعرفة، لا أعرف: هل شعرت وقتها بالزهو أم بالخجل أم كنت ممتعضًا! وسألتنى:

- وانت علمى والا أدبى؟

سؤالها بشرنى بأنها متعلمة وعلى دراية بما يحصل حولها.

- فى تانية علمى علوم؟

- يااااااه.. يعنى كيميا وفيزيا ووجع دماغ.. طب كنت دخلت أدبى أحسن.. وللاّ انت مش بتحب الأدب.

وقلت لها:

- أنا نفسى أبقى زى مصطفى محمود.. عالم وكاتب.

وضحكتْ، وقالت لى إن مصطفى محمود حالة شاذة. وسألتنى إن كنت بحب القراءة أم لا؟ فأجبتُ.

- طب مادام بتحب القراية.. ونفسك تبقى كاتب.. حول ورقك على أدبى!

وقالت لها شيماء:

- ده بيكتب شعر كمان.

وانزعجتُ من تدخل شيماء، وكنت أعتبر كتابة الشعر سرى الأعظم الذى أرفض مطالعة الناس عليه حتى الأقارب. وأحسست أن شيماء قد جردتنى من ملابسى أمام المرأة فسكتتُ.

- أنا كمان بحب الشعر جدًا.. ممكن تقرا لى حاجة.

بماذا تحججت؟ لم أتحجج بشئ، قمت وفتحت الدرج وأستخرجت منه الأجندة، وجلست أمامها مباشرة وقلبى يدق بعنف كأنى طفل صغير يجلس بين يد شيخه.

قالت:

- أقرأ.

فكدتُ أن أقول لها "ما أنا بقارئ!". ولكنى قرأتُ. وهى بدت منتبه لما أقول، حنتْ رأسها وسكتتْ.

شئ طبيعى جدًا إنك مفلس
لآن جيوبك أصلاً مقطوعة
وإيديك الوسخين والعرقنين
أساسًا.. هبوشوا أى إحتمال
ممكن ينتاب راسك
عن العملة الورقية
اللى مش هتستمر معاك
لأكتر من دقيقة واحدة بس
والعملة المعدنية
انت عارف كويس جدًا
إنها مش هتكفى خالص
إنك تجيب اللى فى خيالك
مع إن خيالك ضيق جدًا
يمكن يكون أضيق من جيوبك المخرومين
بس ده مش معناه.....

هى، تقاطعنى، وتضحك، تشير بيدها أسفة، لا تتمالك نفسها فتضحك مرة أخرى وهى تسألنى:

- إيه يا خويا الكلام ده؟

أغلق الأجندة.

- ده شعر.

- شعر إيه؟ ده زى ما يكون واحد بيشحت على باب السيدة.. جيوبى مقطوعة ومش لاقى آكل! شوية شوية تقولى: أنا مش من هنا وفلوسى وقعت وعاوز أى حاجة أركب بيها! ياعم، أنا عاوزة حاجة عاطفية زى بتاعت مصطفى كامل... مش وجع قلب وشغل شحاتة.

صديقة أمى أو الزبونة لم تقاطعنى أبدًا مثلما تفعل وردة، كانت منصتة تمامًا، تحرك رأسها وتبتسم فقط، وحين كنت أنتهى من قراءة خاطرة، كانت تقول جملة واحدة فقط لا تُغيرها:

- الله.. حلو جدًا.. كمل.

فأقلب الصفحة وأقرأ وقد اجتاحتنى الثقة والإيمان بالموهبة، لا أعلم كم مر من الوقت، ربما بضعة ساعات، هى لم تطلب منى أن أتوقف عن القراءة، وأنا فخور بنفسى وبطريقة إلقائى، وقد لاحظت أن صوتى يعلو بمرور الوقت، أين كانت أمى وقتها؟ وأين اختفت شيماء؟ وكأن العالم من حولى قد ذاب! وحين انتهيتُ، قالت كلمة واحدة:

- رائع.

ومشيتْ... وبعد أيام سألت أمى عنها فقالت:

- دى جوزها مسافر السعودية وهى ساكنة جنبنا هنا.. على فكرة دى سألتنى عليك كذا مرة.

وفكرت فى زيارتها، وبدأت هواجس المراهقة تزلزل جسدى، امرأة وجميلة ووحيدة وتحب شعرى، وأنا هائج ووحيد ولا أملك سوى الكلمات.. فما المانع من زيارة خاطفة؟ ولكن، أين تسكن بالضبط؟ وماذا سيكون ردة فعلها؟ وهل شعرى جيد فعلاً؟ ولكنها اختفت تمامًا كأنها لم تكن.

هى، تصر أن أقرأ لها أغنية عاطفية، وتقول:

- أنا عمرى ما سمعت من حد غير كلمة يا بت.. تعالى يا بت، روحى يا بت، غورى يا بت.

الأغانى التى كنت أكتبها لعزة مناسبة لوردة تمامًا، والجوابات التى كتبتها لحسين مناسبة أيضًا.

حسين كان جارى فى إمبابة، وكان يأتينى صباحًا، فى ميعاد المدرسة، ويأخذنى إلى كافتريا، يطلب لى مشروبًا أو أكثر، يستخرج من شنطته رزمة أوراق رُسم فيها قلوب وورود، ويضع على الترابيزة ثلاثة أقلام بألوان مختلفة: أحمر، أزرق، وأخضر. ثم يطلب منى أن أكتب له جواب غرامى. من مَن؟ وإلى مَن؟ من فتاة مجهولة أختار أنا أسمها وصفاتها ومدرستها وعائلتها وكيفية رؤيتها له ومدى

اعجابها الشديد به! والجواب طبعًا مبعوت له، فكنت أكتب مثلاً:

إلى نور الحياة حسين:
حين رأيتك أول مرة وأنت تمر من أمام مدرستى، انخطف فؤادى، وجُن عقلى، وذابت مشاعرى، فقلت هذا قدرى وحبى... ولكنك لم تهتم بمشاعرى وظننت أننى طفلة لا تعرف الحب ولا تقدره، فأرحم ضعفى وشوقى، وأنظر لى بعين الرضا والشفقة.

من العاشقة لك
ريهام

بالطبع كانت الأسماء تتغير فى كل مرّة، فمرّة ريهام وأخرى سناء أو هدير أو مى، المهم أن يكون الاسم جذابًا وجميلاً، كما كانت الكلمات تتغير أيضًا، مرّة عتاب، ومرّة شكوى، ومرّة أخرى غيرة قاتلة من كثرة المعجبات. وكنت أتلذذ بتلك الكتابة، وأحس بأننى قادر على خلق شخصيات، كما أنى قادر على تعذيبها والتحكم فى مشاعرها، على الرغم من أنها شخصيات وهمية! وكان هو يرسل تلك الجوابات عن طريق البوسطة، يكتب اسمه بالكامل غير أنه يتعمد كتابة عنوانه بطريقة غير صحيحة كى يصل الخطاب للورشة الموجودة فى الدور الأرضى، أو إلى الحلاق الموجود

بالشارع، أو إلى أى مكان به تجمع. وحين ينادى عليه الحلاق مثلاً ليتسلم الخطاب، كان يفتح الظرف أمام الجميع ثم يقرأ بصوت مرتفع الكلمات بإستهانة ولامبالاة ثم يمزق الجواب دون كلمة، وكانت العيون تحدق فيه بإعتباره دونجوان عصره وفريد نوعه، وكان يتلقى كلمات من حوله بتعالٍ وترفع، فإذا قال أحدهم:

- يا بختك يا عم.. اللى إداك يدينا.

ينظر حسين له بتقزز ويهز رأسه كأنه يرد "دى واحدة من كتير".

ولكن اللحظة الأجمل فى حياتى كانت حين رأيت اللفافة الفضية فى يد محمد منير وهو يرقص ويغنى على مسرح الأوبرا، كنتُ وقتها فى الجامعة، لا أذكر فى أى سنة، ربما الثانية، أو الثالثة، لا يهم، المهم... أننى وقتها كنت أحلم بأن أصبح كاتب أغانى شهير، أسهر مع الفنانين وأسافر معهم وأنعم بحياة الشهرة والترف والرخاء. وبحت لسامى بأحلامى، فقال:

- طب ما تجرب حظك مع أحمد الأسمر.

أحمد الأسمر كان وقتها من نجوم إمبابة فى الغناء، وكانت له أغنية شهيرة لا أذكر سوى مطلعها " يا حيبى.. آآآآه.. مستنى.. آآآآه.. على نارى... هتجينى... آآآآه... وتقولى.. آآآآه".

واستطاع سامى أن يحصل على رقم هاتف النجم، فاتصلت به وعرفته بنفسى "شاعر غنائى"، وحدد لى موعدًا على قهوة بشارع الوحدة. وظللت طوال الوقت أعد نفسى لهذا اللقاء التاريخى الذى سيضعنى على أول سلالم المجد. وقبل الميعاد المحدد ارتديت أفضل ملابسى، وحلقت شعرى وتعطرت كأننى عريس يتأهب ليوم زفافه، واخترت أفضل القصائد ولكن سامى اقترح علىَّ أن نذهب إلى أقرب مركز كمبيوتر لإعادة كتابتها وطبعها.

- عشان الملحن ممكن مايعرفش يقرا خطك.

واقتنعت، وبالفعل طبعت الورق وذهبنا فى الموعد. كان يجلس بشعره الطويل وقميصه المزركش بمئات الألوان على القهوة وإلى جواره شاب يرتدى ذات القميص وله ذات قصة الشعر، وكان هذا الشاب ضخم جدًا فى حجم سيارة نقل كبيرة ومحملة. دخلنا عليهما ونحن نقدم رِجل ونأخر الأخرى، وقد استحوذ علينا القلق والرهبة والخجلَ. قلت:

- الفنان أحمد الأسمر؟

فهز رأسه بالإيجاب.

- حضرتك.. أنا عاطف اللى اتصلت بيك أول امبارح.

وسكتتُ، فأشار لنا بالجلوس، جلسنا وسكتنا، وسألنى:

- ها... محضر لى إيه يا فنان؟

وناولته الورق.

- لأ.. أنا عاوزك تسمعنى.

وكأننى نسيت القراءة تمامًا، تنحنحت وابتلعت ريقى، فنخزنى سامى فى جنبى وكأنه ضغط على زر التشغيل فانطلقت قارئًا، بعد أن انتهيت، نظرت للنجم وسكتتُ، هز رأسه:

- تشرب إيه الأول؟
- ولا حاجة.
- تشرب إيه بس؟

لم أشعر بالإرتياح وقلت محاولاً إنهاء الموقف:

- أى حاجة.

فصاح:

- اتنين حاجة ساقعة يا علاء.

واعتدل فى جلسته.

- عاوز أسمع حاجة تانية.

وقرأت قصيدة أخرى وأنا أحس بخيبة الأمل.

- بس يا نجم.. أنا مطرب شعبى.. والأغانى اللى انت كاتبها دى تمشى مع كاظم الساهر أو جورج وسوف... الدم اللى فى عروقى.. والضى اللى فى عيونى.. والحوارات اللى بتقولها دى.. الناس فى إمبابة ما تفهمهاش.. أنا كده ممكن انضرب.. يرضيك انضرب؟

وأجبت على الفور.

- لا طبعًا مايرضنيش.

- خلاص.. تبقى محلولة.

وجاء القهوجى بالمشاريب ووضعها على الترابيزة.

- أشرب الأول الحاجة الساقعة.

أحسست إننى عبد الحليم حافظ وإن سامى يلعب دور عبد السلام النابولسى، وإننا نقوم بدور هزلى فى فيلم قديم، وقررت أن أخرج من هذا الموقف المحرج بأسرع وقت.

- أنا بحب الأغانى الخفيفة.. اللى بتعلم مع الناس.. انت سمعت الشريط بتاعى؟

"ولا أعرف عنه حاجة" قلت فى سرى.

- آه طبعًا سمعته.

نظر نحو الشاحنة.

- فاكر يا أشرف الأغنية دى جت إزاى؟

وأجابت سيارة النقل:

- طبعًا فاكر.

فأوضح النجم:

- كنا قاعدين نسكر عند كوبرى روض الفرج.. وكل شوية أحدف إزازة البيرة الفاضية فى الميه وأقول: يا حبيبى.. وأشرف يرد عليا: آآآآآه.. مستنى... وأشرف يرد: آآآآه.

وبدأ النجم فى الغناء فعلاً، وأستاذ بلدوزر يردد خلفه وهو يطبل على الترابيزة وجسده يهتز فأحسست بأن الأرض

تتحرك تحت أقدامنا، وأن المبانى المحيطة بنا توشك على السقوط.

- ومن هنا جت الأغنية اللى كسرت الدنيا.

أنا فى فيلم عربى فعلاً، ولكن الأدوار تتغير، صار هو محمود عبد العزيز فى فيلم الكيف، وأنا الريس ستامونى، هذه الوقعة لن يصدقها أحد، ربما لهذا السبب لم أذكرها أبدًا فيما بعد... أخيرًا تدخل سامى وأخرجنى من تلك الكارثة.

- على العموم هو عرف دماغك.. والمرة اللى جاية هيحضر لك حاجة حلوة.

وانصرفنا وأنا لا أصدق ماحدث.

ولكن واقعة محمد منير كانت مختلفة، وكان الطموح أكبر وأعظم، وكنت أعتقد أن القدر يخدمنى ويقف بجانبى، حين علمت بشأن الحفلة لم تكن معى أية فلوس، وقلت لنفسى "هجرب حظى".

واخترت قصائد تتحدث عن مشكلة التهجير والنوبة القديمة، وذهبت أنا وسامى للحفل، ولم يكن معنا سوى حق المواصلات، وكان كل أملى أن أعثر على محمد منير أثناء دخوله أو خروجه من الأوبرا، ورحنا نحوم حول المبانى فى محاولة يائسة، ولكننا عرفنا من رجل الأمن أن دخول الفنانين من مكان خاص غير مسموح لأحد أن يتواجد فيه، فقلت "مش مهم.. يعنى هى دى اللى هتنفع".

وفكرت فى العودة ولكن سامى طلب منى أن نحضر الحفل، والأمر كان أبسط مما كنا نتخيل، كل ما علينا فعله هو دخول الأوبرا، ثم الإلتفاف حول المسرح والدخول، بمعنى أدق الزحف من تحت السرادق ثم العبور إلى الداخل. ونحن فى الأوبرا تعرفنا على شاب نوبى، كان يسكن أيضًا فى إمبابة وقد حاول مساعدتنا بقدر المستطاع، وكانت معه تذكرة، واقترح علينا أن يدخل هو أولاً ثم يحضر تذاكر لنا من أصدقائه الذين دخلوا بالفعل، وأعتقدنا أنها خطة ممتازة. وعندما سألنى على اللفافة الفضية قلت:

- دى هدية.. مجموعة أقلام عشان الملك.

وتركت له الأوراق التى كنت قد لففتها فى ورق الهدايا! بداخل الأوبرا، ووسط الزحام الشديد توهنا من بعض، واختفى الشاب، ولم أشعر بأى حزن على الأوراق التى ضاعت، وانشغلت بالتسلل داخل الحفل، وفعلنا المستحيل أنا وسامى حتى ولجنا من بين الأعمدة الخشبية، ثم زحفنا من تحت السرداق، ثم جرينا بأقصى سرعة حتى نبتعد عن أعين رجال الأمن ونلتحم بالزحام، وكانت فرحتنا عظيمة جدًا، سنحضر أول حفل غنائى لمطربنا المفضل، وكنا نقف فى الصفوف الأخيرة، ولم يمنعنا هذا من الرقص والإستمتاع... وفجأة، وفى منتصف الحفلة تقريبًا صاح سامى بقوة وصرخ، ثم التفت نحوى وقال بصوت عالٍ جدًا:

- يظهر إن الواد حدف الورق لمنير.

وانذهلت! وطلبت منه أن يحملنى حتى أرى بوضوح، وحين حملنى، وجدت الملك وهو واقف وقفته الشهيرة وبيده اللفافة، لم أصدق نفسى وكأن القدر يعوضنى عما حصل مع الأسمر، وحضنت سامى وظللنا نصرخ بقوة حتى أن الفتاة التى كانت تقف إلى جوارى سألت:

- هو إيه اللى حصل؟

ولكنى لم أرد عليها، كانت الفرحة على وشك أن تقتلنى، وظل هو طوال الحفل يرقص ويغنى وهو ممسك بالأشعار حتى انتهت الحفلة، ونزل من على المسرح والأشعار لا تزال بيده. وعدت أنا إلى البيت وأنا فى قمة سعادتى، يومها لم أنم لحظة، وضعت مئات السيناريوهات لما سيحدث: أولاً سيذهب إلى بيته، ويستريح قليلاً، ثم يجذبه الفضول لفتح تلك الهدية، وسيندهش عندما يجد الأشعار، وبالتأكيد سيقرأها، وبالتأكيد أيضًا سينبهر بها، وسيتصل بالرقم الموجود أسفل كل قصيدة، ويطلب منى الحضور، وسأقول له إننى أعرف عنوان بيته جيدًا، وحين أذهب إليه سأجده بانتظارى هو وأحد الملحنين العظماء، وسيقول له "هو ده العبقرى اللى كتب الكلام الجامد ده"، ونجلس سويًا حتى ننتهى من هذه الأغنية التى – حتمًا- ستتصدر ألبومه الجديد.

فى صباح اليوم التالى لم أتحرك من جنب التليفون، حتى أننى لم أدخل الحمّام، كنت أخاف أن ترد أمى، وأنا أعرف أن

أمى إذا ردت ستفسد كل شئ، وستجبره على عدم الاتصال مرة أخرى، وكانت حين تطلب منى شئ أرفض.

- يا واد روح هات عيش.
- لأ.
- ليه إن شاء الله مش هتاكل؟
- مش هاكل.
- طب احنا عاوزين ناكل.
- ماليش دعوة.

حتى الجامعة تغيبت عنها، لمدة أسبوع أو أكثر وأنا لا أبرح البيت، لا أجلس على القهوة، لا أقابل أحد من الأصدقاء، لا أدخل الحمام إلا عند الضرورة الشديدة وأنتهى بأقصى سرعة. وأمى لا تكف عن سؤالى:

- يا واد مالك يا واد لازق فى البيت بغرا؟

أو.

- انت عيان؟

أو.

- هو فى إيه بالظبط؟ انت هتفضل قاعد فى البيت كده زى قرد قطع؟

أو.

- شكلك هتخيب خيبة أبوك.. صحيح ابن الوز عوام.

وأنا لا أرد، أتمسك بالأمل وأقول لنفسى "يمكن يتصل النهار ده" ويمر النهار، ويمر الليل ولا يرن الهاتف أصلاً.

بعد فترة طويلة أيقنت أنه لن يتصل، ربما لم تعجبه الأشعار، ربما لم يقراءها من الأساس، ربما فقدها أثناء العودة، ألف ربما، وخمسمائة احتمال.

وردة تطلب منى أن أكتب لها أغنية، أغنية عاطفية يكون فيها اسمها، وهى ستتولى الباقى، وتقول إنها تعرف ملحن فى السيدة عائشة وعلى صلة بمطربين كثيرين، وكل ما علىَّ فعله هو الكتابة، هى لا تحلم بالشهرة ولا بالمال، وكل ما ترجوه أن تسمع اسمها وسط كلمات جميلة، وأن تشعر بالحنان، وأن هناك من يهتم بها.

أنا أقول لها:

- سيبى لى الموضوع ده.. ولا تشغلى بالك.

وهى تصدقنى، وتؤمن بكل كلامى، ولا تعارضنى. ترفع البراد من السبرتاية وتصب الشاى، وتضع لى معلقة واحدة من السكر، وتناولنى الكوب ثم ترقد على الأرض. الجو صيف والأوضة خانقة، وهواء السطح منعش ورائع، تحس بأنى زوجها، وأحيانًا أخرى تقول لى بأننى ابنها الصغير الذى تتضايق منه أحيانًا ولكنها لا تستطيع أن تهجره. هى تذكرنى بأمى فى صبرها وقوة تحملها. أسألها: هل تحبنى؟ فتجيب:

- مش عارفة.. أصل أنا عمرى ما حبيت حد ولا حد حبنى.. بس أنا بحس إنى مستريحة وأنا معاك.. ببقى كده زى المبسوطة.

وتشرب من الشاى.

- هو أنا وحشة أوى؟

يصدمنى السؤال، وتضيع منى اللباقة.

- وحشة إزاى يعنى؟

- وحشة.. يعنى وحشة.. شكلى يعنى وحش أوى؟

أنا أفكر فى إجابة لا تقتلها، هى فعلاً دميمة جدًا، وبدينة جدًا، بمقاييس الجمال لا تساوى ذرة واحدة. أكلمها عن جمال الروح والطيبة والقلب الأبيض.

- يعنى وحشة.. مش مهم.. أهى خلقة ربنا.. بس انت مش هتكتب إنى وحشة.. صح؟

لا أرد.

- ما انت برضه لو كتبت أنى مش وحشة تبقى لا مؤخذة كده.

وتنظر فى عينى مباشرة.

- كداب.. مش كده؟

لا أعرف كيف أخرج من هذا المأزق.. هى طيبة وجدعة كما كنت أقول لسمارة، ولكن المرأة لا تهتم بالطيبة والجدعنة بقدر اهتمامها بالجمال.

- أنا نضفت لك الأوضة وخالتها زى الفل.

وتضع الكوب الفارغ على الأرض.

- هغسل بس كوبيتين الشاى والبراد وهاروح.. عشان كل حاجة تبقى نضيفة قبل ما أمشى.

-11-

للإنسان مسارات مختلفة ومتشعبة وأحيانًا متقاطعة.

أقول لنفسى "ماذا لو حصل كذا؟ ماذا سيتغير فى مسار حياتى؟ ماذا لو أننى لم أفرش فى رمسيس ولم أعرف سوق الجمعة؟ ماذا لو كان اتصل محمد منير مثلاً؟ حتمًا حياتى كانت ستختلف تمامًا، ربما أكون الآن بصحبة نجمة مشهورة، أو أسكن فى شقة فاخرة بوسط البلد... ماذا لو لم يسافر أبى للكويت؟ كنت سأعمل معه. ماذا لو كانت أمى تزوجت من ابن عمها؟ أين سأكون وقتها؟ هل كنت سأخلق من الأساس؟ هل كنت سأنتمى إلى أمى وابن عمها أم إلى أبى وامرأة مجهولة؟ وماذا كان سيحصل لو رفضت أن أمضى

على إيصال الأمانة؟ لكنت اليوم فى بيتنا أرعى أمى وأختى وأحافظ عليهما.

هناك مشهد واحد يسيطر علىّ الآن: الحوار الأخير الذى أتوقع أنه دار بين أبى وأمى قبل سفره... كيف كان؟ دائمًا أتخيله على النحو التالى:

أبى مستلقى على الكنبة وعيناه محملقة فى السقف، وأمى مربعة على الأرض تتابع المسلسل العربى، وفجأة، وبلا مقدمات، ينطلق أبى متكلمًا:

"الأشلاء كانت تحاصرنى، أنا البطل الحقيقى. الهروب من المعركة أخطر من المعركة ذاتها. أخذ منى ملابس الحرب والأسلحة وجهاز اللاسلكى حتى، أنا البطل الحقيقى جردنى من كل شئ! قال لى إن البدو لا يحاربون مع أحد ولا يفرون من المعارك. وقالوا فى الراديو "نحن ننتصر، نحن نعبر".

وأنا أدق على باب أمى وأصرخ "دثرينى، دثرينى، الأعداء قادمون خلفى".

وجريت إلى الحجرة، وزحفت تحت السرير وصوت الرصاص يدوى "إنهم قادمون".

ارتجفت وضغطت بعنف على أذنىَّ، دندنت بكل الأغنيات التى أحفظها، صفرت، صرخت "أغلقوا الباب، العدو صاعد".

كان دبيب أقدامهم يطحن السلالم ويهز البيت كله.

قال الرجل "خائن، تخلف يوم الزحف، هرب يوم النصر".

وقال المحامى "مجنون وليس على المجنون حرج".

وقال آخر "يُقتل".

وآخر "يُعدم فى ميدان عام".

وقال القاضى "يحول إلى مستشفى الأمراض العقلية والنفسية".

انتهت الحرب... فأين الوطن؟ وطنى هو لقمة عيشى وبيتى، وكما فعل الأنبياء سابقًا سأفعل، وهناك... فى البلاد البعيدة ستتحقق الأحلام والأمنيات، فأعود محملاً بالمال والهدايا، وسأبنى بيتًا من طابقين وسأربى الدواجن والحيوانات كى لا أتعامل مع أحد، وأزين البيت من الداخل ومن الخارج بلوحاتى حتى يشير المارة من بعيد ويقولون "هذا بيت الفنان". ويأتون بأصدقائهم وأقاربهم ليروا اللوحات على الجدران، وسأشترى لعاطف دراجة، ولشيماء فستانًا، ولك العالم الذى تحلمين به"

وهى صدقته؛ ليس لأنه صادق فعلاً فيما يقول، ولكن... لآن كلامه أعاد لها الأمل؛ هى التى عانت من الوحدة والقهر والمذلة، وجربت الغربة قبله ومعه، وعاشت عمرها كله تحلم بالشقة الواسعة والأثاث ومصروف البيت، وبالحياة العادية.

هل هذا حقًا ما حدث ليلتها أم إنه تجاهلها تمامًا كعادته؟

قال لها فقط "أنا مسافر خلاص".

وهى هزت رأسها، وقالت بصوت هامس "المنحوس منحوس حتى لو ركبوا على راسه فانوس".

فى الحقيقة لا أعلم! ولكنى لا أستطيع أن أطرد هذا المشهد المتخيل من رأسى! ربما يريد عقلى الباطن أن يضفى صفة أسطورية على حياة أسرتى! هذا تفسير جائز جدًا ومنطقى. وربما يرفض عقلى هذا الخنوع الذى عاشته أسرتى... يبدو أننى بدأت فى التخريف! ربما سيجارة حشيش أخرى ستجعلنى أنتشى... من الأفضل أن أفكر: أين ذهب أبى؟ أين اختفى فجأة وتلاشى كأنه لم يكن موجودًا أصلاً من قبل؟ هل كان موجودًا أصلاً؟ ربما وربما لا.

-12-

زرتُ شقة إمبابة...

القفل المعدنى الضخم الذى كان معلقًا على باب الشقة هذا الصباح أفهمنى أنه لا أحد بالداخل، ليس ذلك فقط، بل ربمّا تكونان قد سافرتا إلى الإسماعيلية، فنحن من عاداتنا عدم غلق باب الشقة بأى مفاتيح، نحن أصلاً لم نكن نستخدم المفاتيح فى غلق أو فتح الباب، فإذا خرجنا أغلقنا الباب

خلفنا وتركنا سكينًا فى بئر البيت وبها نفتح الباب، وأنا كنت أستخدم مطواتى فى فتح الباب، باب شقتنا قديم ومتهالك ومن الممكن سحقه بضربة قدم واحدة... نحن لا نملك أى شئ للخوف عليه، وكانت أمى تقول:

- لو حرامى دخل البيت وشاف حالنا مش بعيد قلبه يحن ويسيب لينا فلوس وهو ماشى.

منظر القفل على الباب أفزعنى، أفزعنى ووترنى وأصابنى بالخوف، فالسفر إلى الإسماعيلية معناه أن هناك حالة وفاة، وقد تغيبان يومًا أو يومين، أنا أساسًا لا أعرف متى سافرتا! وفكرتُ فى أن أسأل أحد الجيران، وتذكرت الحكومة والحبس وضباط تنفيذ الأحكام فخفت، كنت قد قلت لنفسى: "هشقر عليهم أوام أوام وهرجع بسرعة".

أمى وحشتنى وكذلك شيماء، من عدة أشهر لا حس عنهما ولا خبر، كانت أمى تقول لى:

- بكره تبقى ضهرى وتشيل الحمل عنى.

وكسرتُ ظهرها، وحملتها فوق حملها أحمال، وكانت تقول أيضًا:

- الراجل أساس البيت وحيطانه وسقفه.. والست عواميد الخرسان.. بتحافظ على البيت من الزلازل ومن هدّة الزمن.

وبيتنا بُنى بغير أساس، أو قل لم يبنَ على أرض أصلاً، أما أعمدة الخرسان فهى أعمدة صلبة ومتينة ومضروبة فى

الأرض بقوة، ولكنها أعمدة فقط لا يحيط بها جدران ولا يعلوها أسقف وليس بها حتى أبواب وشبابيك.. مجرد أعمدة خرسان فى الخلاء تحارب الرياح وتقاوم المتطفلين وترتفع فى شموخ كاذب وأجوف.

وهممتُ بالمشى، ولكن صوت جارتنا جاءنى من فوق مناديًا:

- إزيك يا عاطف؟ بقالك مدة مش باين؟.
- الحمد لله.

وسألتها عن أمى وأختى، فضربت يدها على صدرها بحركة مسرحية تقليدية:

- يووه.. هو انت ما تعرفش؟!

جملة "هو انت ما تعرفش؟" وطريقة إلقائها أشعرتنى أن هناك مصيبة سأسمعها حالاً.

- لا.. ما أعرفش.
- أمك قاعدة عند أختك بقى لها أكتر من شهرين.

وقلت لنفسى وكأنى أحاول فهم الكلام عن طريق إعادته "أمك قاعدة عند أختك! أمى عند أختى فين؟".

وسألتها، فقالت مرة أخرى:

- هو انت ما تعرفش؟!

وسكتتُ، السكوت خير إجابة فأكملتْ:

- مش أختك اتجوزت، وسكنت جنبنا هنا فى أرض الحداد.

وكان هذا آخر ما توقعته! أختى تزوجت دون علمى أو حتى استشارتى وكأنى لم أكن أخًا لها! وكيف وافقت أمى أن يتم العرس فى غيابى؟ وبهت، وتمنيت أن تبتلعنى الأرض من الحرج والغضب واليأس ومئات المشاعر التى احتوتنى ومزقتنى... ودون أن أشكر الجارة مشيت فنادت علىّ:

- تحب تاخد العنوان؟ أنا حفظاه.

ووقفت وهززت رأسى للأعلى والأسفل فوصفت لى الطريق وقالت لى على العلامات واسم الشارع، وخرجت من البيت حزينًا ومهمومًا، ودايرت وجهى وأسرعت فى خطوتى، وظل السؤال يتردد داخلى "أروح والا ما أروحش؟ أروح والا ما أروحش؟".

ورحتُ، رحتُ وأنا محرج كأنى سأزور ناسًا لا تربطنى بهم صلة؛ أنا بطبعى خجول، ولا أحب الزيارات، وأكثر شئ أكرهه فى الدنيا الأفراح والعزاء، وكنت وأنا طفل إذا زرنا أقاربنا أو زارونا أشعر أن قدمى تؤلمنى وأبدأ فى الزك عليها كأن بها علة، وكانت يدى اليمين تلتف بتلقائية غريبة خلف ظهرى وكأنها ترفض أن تسلم على أحد، وكان أول من يرانى دائمًا يظن أن قدمى بها مشكلة ما، الغريب أن هذا الإحساس قد عاد لى اليوم وأنا فى الطريق إلى بيت شيماء، عاد بعدما تخلصت منه تمامًا وأصبح ذكرى يصعب العودة إليها، وبعدما أيضًا عملت فى المبيعات وخبطتُ على شقق لا أعرف سكانها وفرشت فى الشوارع ومررت – بائعًا – على المقاهى

والمحلات وهى مهن عديدة كفيلة بنسف الخجل نهائيًا من أى إنسان، فلماذا أخجل اليوم وأنا ذاهب إلى زيارة أختى؟

السلالم واسعة والعمارة تبدو من منظرها الخارجى جميلة وضخمة ومُزينة بالأخضر والبرتقالى، غير أن الدور السابع عال جدًا خاصة على من تعود على الدور الأرضى، هذا السلم قادر على قتل أمى التى تعانى من حساسية الصدر وضيق التنفس. أنا تعودت على السلالم من خلال عملى مندوب مبيعات، كما أنى أسكن فوق سطح، سطح لبيت قديم من خمسة طوابق، سلالمه ضيقة ومعتمة وبلا سور ومتعبة وعالية وتشعرنى بدوار أثناء الصعود والهبوط، أما هذه العمارة فأمر مختلف تمام الإختلاف؛ إضاءة فى كل دور، زجاجات مليئة بالمياه أمام الأبواب لطرد القطط، درجات رخامية بيضاء، سكن جعلنى أفكر "ماذا يشتغل زوج أختى؟".

زوج أختى! أصبح لأختى زوجًا لا أعرف حتى اسمه! هل أنا المخطئ أم هما؟ هل كان خوفى من الحبس مبالغًا فيه؟ كان بإمكانى أن أزورهما على فترات متباعدة، مرّة فى الشهر على الأقل، بالتأكيد هما حاولتا الوصول لى أو الاتصال بى ولكنهما فشلتا، بالتأكيد فشلتا، موبايلى القديم سُرق فى السوق ورقمى الجديد لم يعرفاه... فكيف كانتا ستصلان إلىَّ؟ أنا المخطئ، فلا لوم على أحد غيرى.

دققت على الباب وانتظرت، قلبى دق أيضًا، ربمّا كان صوته مسموعًا أكثر من صوت الباب، لم يرد أحد، دقة أخرى، ثمّ ثلاث دقات متتالية وسريعة وابتعدت عن الباب بضع خطوات، هذا ما تعلمته من العمل فى المبيعات، أن تترك مسافة كافية بينك وبين الباب الذى ربمّا يكون خلفه شئ مُحرج. لم يَجب أحد أيضًا! وقلت "أنا همشى وأبقى أجى مرّة تانية".

ثم قلت "طب ما أرن الجرس، ده أنا حمار صحيح".

ورننت الجرس، وانفتح الباب، كانت أمى بملابس البيت، ملابس جديدة ونظيفة، ولم أنطق، نطقت هى، وارتمت فى حضنى، وقبّلت عينى كما كانت تقبّلها وأنا عيل، وبكت، وأدخلتنى، وصاحت:

- تعالى يا شيماء أخوكى جه.

وجاءت شيماء محرجة وسعيدة وجميلة، كانت جميلة جدًا، عروسة فعلاً، وقبّلتنى وأجلستنى فى الصالون. الشقة كما تخيلتها تمامًا، سفرة وصالون وربمّا ثلاث غرف، ورق حائط وتحف.

وقالت شيماء:

- أنا دخت السبع دوخات عشان ألاقيك.

فقلت:

- انتى اللى تليفونك على طول مقفول.
- لا والله ده اتسرق وما عرفتش أرجع الخط القديم.

وقالت أمى:

- دى مطيورة.. كل يوم والتانى تتضيع موبين.

تقصد "موبايل"، وقالت لشيماء:

- قومى اعملى عصير لأخوكى.

- لأ.. هو هيتغدى معانا.

وكنت جائعًا، ميتًا من الجوع فقد نزلت منذ الصباح دون أن آكل، ولكنى أُحرجت.

- مش هقدر أكل، أنا لسه واكل حالاً عند عرفة.

وقالت أمى:

- بقى ده اسمه كلام.. تاكل من الشارع وانت رايح بيت أختك؟

وكدتُ أن أقول لها "ما أنا طول عمرى باكل من الشارع إيه الجديد يعنى؟".

ولكنى سكتتُ وانكمشتُ فى إحراجى، ويبدو أن شيماء قد أحست بى فقالت:

- والله أنا ما كنتش عاوزة أعمل الفرح من غيرك.. بس حسين كان مستعجل وكان عاوز يرجع الإمارات.. واحنا ما كناش عارفين انت هتظهر تانى إمتى.

وأكملت أمى:

- حسين بن حلال.. وخالك محمد قام بالواجب وزيادة.. والحمد لله.

إذن فالزوج اسمه حسين وهو يعمل فى الإمارات، وضربتنى صورة الشوارع الواسعة النظيفة، والبلاد التى ليس بها فقراء، وأبى والكفيل وسمارة والحلم القديم براحة البال وابنة السلطان والجنى الطيب والبلاد البعيدة، هل تحققت الأحلام الآن؟ هل حسين هذا هو الجن الطيب الذى جلب اللؤلؤ والمرجان إلى الأميرة؟ وهل الأميرة هى شيماء؟ ونحن... من نحن، الناس الغرباء؟

وانتزعنى صوت أمى:

- كُل ملوخية وفراخ هتفتح نفسك.. دى شيماء طبخاها زى عسل النحل.

وقمتُ وقلتُ لهما إننى أريد أن أمشى قبل أن يتأخر الوقت، وتحججت بالعمل، كذبتُ.

- أنا مستأذن من صاحب المحل ساعتين.

وقلت أيضًا إننى أعمل فى محل ملابس بوسط البلد، وأننى أدير المحل وأحقق مبيعات جيدة، ولى راتب معقول إضافة إلى نسبة من المبيعات، وابتسمت أمى ودَعتْ لى:

- ربنا يوقف لك ولاد الحلال.

وخشيت أن تطلب منى فلوسًا ولكنها لم تفعل، وسألتنى:

- وعملت إيه مع الراجل ابن الكلب؟
- راجل مين؟
- الراجل ابن الكلب الوسخ اللى عاوز يحبسك.

انقبض صدرى، وتحركت معدتى حتى سمعت صوتها، وقالت شيماء:

- أنا ممكن أديك الفلوس تروح ترميها فى وشه.. هما كام؟

ارتبكتُ وأحسست بخجل شديد وقلت لنفسى "ملعون أبو الكسوف.. دى أختك وبعدين أبقى ردهم على مهلك".

ولكنها ليست فلوس أختى، فلوس زوجها، الرجل الذى لا أعرف سوى اسمه، لا أحب أن أظهر بشخصية الأخ البلطجى الذى يبتز أخته الثرية ويبدد أموالها؛ قلت:

- لا.. خلاص.. أنا خلصت معاه.
- أُمال مختفى ليه بس؟
- ضغط الشغل.

وتنهدت أمى بارتياح:

- الحمد لله إن الموضوع ده خلص على خير.

نزلتُ المنيرة وأنا متخبط فى أفكارى... كان بينى وبين حل مصائبى خطوة واحدة، بل كلمة، كلمة واحدة لو كنت نطقتها بشجاعة لانحلت كل مشاكلى... فلماذا جبنت وخجلت؟ ولماذا كذبت؟ خفت على كرامتى! فأين هى كرامتى وأنا عبد ذليل عند سمارة أعمل من أجل قوت يومى مثل البهائم؟ ثمّ، أليس التذلل أمام الأخوة أفضل من التذلل للغرباء؟ لا أعرف! ولكنى رجل البيت كما كانت أمى تقول:

- انت راجل البيت.. انت راجلنا.

وكان على رجل البيت أن يقوم برعايته والحفاظ عليه لا أن يتركه للغرباء يصرفون عليه ويحافظون على نسائه! أم هى العُقد القديمة، عقدة الأخ الذى يريد أن يظهر بمظهر البطل القوى أمام أخته الصغيرة، الأخ الذى كان يغضب ويثور حين تستفزه أخته الصغيرة وتشير إلى سيقانه الرفيعة وتقول:

- ده راجل ده؟ ده عامل زى البرص!

ولكن البطل الصغير تركها واختبأ فى السوق كالفئران، تركها للبلاد التى تشيل وتحط حتى عثر عليها الأمير الذى يبحث عن البنت الفقيرة الجميلة ويحملها إلى فوق، فوق جدًا، حيث قصرها الصغير فى الدور السابع. ظهور الأخ الآن أشبه بظهور الشخصيات الشريرة فى آخر الحواديت، الشخصية التى تأتى متأخرة لتهدم النهاية السعيدة، أخ متعاطى مخدرات وعليه قضية شيك بدون رصيد ويعمل على جمع الإتاوات من الباعة لحساب رجل مختل وربمّا يكون مجرمًا هو أيضًا.

ودخلت محل عرفة، وطلبت طبق مكرونة وسلطة وعيش، وأكلت وشربت، وحاسبت وأنا أفكر فى هذه النهاية، ليست كل النهايات سعيدة، أصلاً لا توجد نهايات سعيدة، فالحمد لله أن أمى وأختى وجدتا من يرعاهما ويحقق لهما أحلامهما.

أحس بالضيق، بالضيق والخوف والسعادة، مشاعر متناقضة ومختلفة تستحوذ علىّ، سعيد من أجل أختى، وخائف من القادم ومتضايق لإحساسى بأننى تافه، حشرة صغيرة متحفزة دومًا، تخشى من قدم قد تدهسها دون أن تلاحظها، من عبث طفل صغير يلهو بها، من مبيد حشرى يخنقها ويقتلها.

أدخل الحجرة وأرتمى على السرير، أنظر إلى السقف للحظات، أقوم وأخلع ملابسى كلها، أريد أن أشعر بالحرية، أن أحس بأن القيود التى كبلتنى لأعوام قد فُكت... هنا لا عيون تكشف عورتى ولا أحد سيهتم بهذه الندوب والجروح المنتشرة بأعلى ظهرى وعلى كتفىّ.

صدر للكاتب:

دار الغواية – رواية – عن دار ميريت للنشر – 2009

للتواصل:

Amrashour1982@gmail.com